أسرة "أهل آدب"

سلالة الشعر وبيت القصيد

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
- التراث الكنتي البوسيفي -
(أدبيات أهل آدب) - (1)

- **الكتاب:**
  أسرة "أهل آدب":
  سلالة الشعر وبيت القصيد
- **المؤلف:**
  أدي ولد آدب

- **عدد الصفحات:** 112 صفحة
- **مقاس:** 16×24 سنتم
- **الطبعة الأولى:** مراكش 1442 هـ/ 2020م
- **الكلمات المفاتيح:** التراث الكنتي، أدبيات أهل آدب، تراجم، نصوص شعرية
- **الحقل المعرفي:** الآداب/ / الأدب الموريتاني/ تراجم
- **ديوي:** 800

رقم الإيداع القانوني: 2020MO4422
الرقم الدولي: 978-9954-618-84-4

جميع الحقوق محفوظة © 2020 - المغرب

الناشر:

مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال،
483/4 الوحدة الرابعة، الداوديات - مراكش - المغرب
(212) 05 24 30 73 59
www.afaqedit.com
Email: afaqedit@gmail.com

تصميم الغلاف: مؤسسة آفاق – مراكش - المغرب
الطباعة: المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش- المغرب

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال.

سلسلة التراث الكنتي البوسيفي

(أدبيات أهل آدب)

(1)

أسرة "أهل آدب"

سلالة الشعر وبيت القصيد

أدي ولد آدب

إهـــــــــداء

إلى **"أهل آدب**: سلالة الشعر، وبيت القصيد"
فيوم مضوا.. سلفا

..... مضـتْ بَقِيَّـةُ هـذا **المجْـد** و**الكَـرَمِ**
و**الشُّكْر**، و**الصبْرِ**، و**الخُلْقِ** الجميلِ، على **حُسْـنِ الوفَـاءِ** بحَـقِّ النَّقْـدِ والسّـلَمِ
و**العِلْم**، و**الحِلْم**، و**السِّرِّ المَصُونِ** عَـلَى **صوْنِ الـسَّرِيرَةِ**، مِنْ زيْـغٍ، ومـنْ لَـمِ
و**الـنَّظْمِ**، و**النَّثْـر**، **فِي أعْـلَى بَلَاغِتِـهِ** و**المِـدْفَعِ**، الـدَافِعِ، المِقْـدَامِ، و**القلـم**

كما قال ابن عمهم العالم: محمد بن الدِّيَّ
في رثاء الشيخ أحمد بن آدب 1944م

الفهرست

أولا: تمهيد 13

ثانيا: فضاء الوراثة الشعرية: جدل النسب والأدب..... 17

ثالثا: قبيلة كنتة والشعر: توأمة النشأة 21

رابعا: الشاعرية البوسيفية: خصوص الخصوص 27

أ – شاعرية أولاد بوسيف عموما 27

ب – شاعرية أولاد بوسيف الخضر 33

ج – شاعرية أهل مْحمد بن الطالب أعمر بن خيري 34

1– المختار بن مْحمد 34

2– أحمد بن المختار بن مْحمد 35

– أحمد بن المختار وشعر "الزريگة": الارتياد والامتداد 36

3– محمد بن المختار بن مْحمد 40

4– أحمد بوه محمد بن محمد بن مْحمد 41

خامسا: شعرية أهل سيد الأمين بن مْحمد بن الطالب أعمر بن خيري 45

1– أحمد بن سيدي الأمين (حفيده شاعر) 46

2– الشيخ بن سيدي الأمين (لم يعقب ولدا) 46

3– مْحمد "ويْقي" بن سيدي الأمين (لم يعقب) 48

4– عبد القادر "آدب" بن سيدي الأمين: رب البيت الشعري 51

سادسا: شاعرية أبناء آدب: خلاصة السر الباقي 59
1- سيد محمد(سيدي) ولد آدب: (شاعر بالفصحى وبالحسانية) 59
2- مُحمد لحوار بن آدبَّ (شاعر بالفصحى) 66
3-سيد مْحمد بن آدب (شاعر بالفصحى) 69
4-الشيح أحمد (شاعر بالفصحى وبالحسانية) 70
سابعا: شعرية أحفاد آدب: بقية البقية 87
أ - أبناء سيدي بن آدب 87
1- حم بن سيدي ولد آدب (شاعر بالفصحى وبالحسانية) 87
2- خديجة "ديه" بنت سيدي بن آدب (شاعرة بالفصحى
وبالحسانية) 88
ب- أبناء محمد لحوار بن آدب 90
1- محمد بن محمد الحوار- (شاعر بالحسانية) 90
ج- أبناء الشيخ أحمد بن آدب 91
1- ابنه الأكبر: سيدي ولد الشيخ أحمد (شاعر بالفصحى) 91
2- محمد بن الشيخ أحمد بن آدب: (شاعر بالحسانية وبالفصحى) .. 91
3- آدب بن الشيخ أحمد بن آدب (شاعر بالحسانية) 94
د - أحفاد سيدي بن آدب 94
هـ- أبناء سيد أحمد البكاي بن سيدي 94
1- سيد محمد بن سيد احمد البكاي: ((شاعر بالحسانية)
توفي: 1998م 94
2 - محمد لحوار بن سيد أحمد البكاي (شاعر بالحسانية)
توفي: 2004م 94

و- أبناء حم بن سيدي بن آدب 94
1- ادي بن حم بن سيدي (علمه أسكت شعره) 94
2 - آدب بن حم بن سيدي (شاعر صامت) 95
- ابناه: حم، والبكاي شاعران 95
أ – حم بن آدب (شاعر بالحسانية والفصحى) 95
ب – بداي/ البكاي بن آدب بن حم (شاعر حساني) 96
3 - سيد أحمد البكاي "بداي" بن حم بن سيدي (شاعر بالفصحى وبالحسانية) 96
ز- أحفاد محمد لحوار بن آدب 97
1- محمد لحوار بن سيد أمحمد (شاعر بالحسانية) 97
ثامنا: خلاصة خلاصة السلالة الشعرية: أهْل محمد لحوار بن سيدي البكاي بن سيدي بن آدب..... 99
1- المرابط: (شاعر بالفصحى وبالحسانية) توفي:2013 99
2- سيد مْحمد (شاعر بالحسانية) - توفي 2018 99
3- سيد أحمد البكاي "ول آدب" (شاعر بالحسانية) – توفي 2017 99
4- د/ حم (شاعر بالفصحى وبالحسانية) -توفي 2014 100
5- آدب (شاعر بالفصحى وبالحسانية) - توفي2005 100
6- الدامي: (شاعر بالحسانية) 101
7- مؤلف الكتاب 101
تاسعا: الخاتمة 107

أولا

تـمهيد

حين أقتحم مقاربة سر العلاقة بين عائلتي "أهل آدب"، وبين الشعر خصوصا، والأدب عموما، فليس دافعي لذلك تمجيد الذات، ولا الافتخار بالعروق الضاربة، في هذا الإرث الثقافي الكبير، بقدر ما أعتبر دافعي علميا بحتا، وأداء لواجب وطني وأخلاقي ملزم، إذ إن حاجز القرابة الأسرية عاقني عن تناول هذا الموضوع فترة طويلة تعرض خلالها هذا الرصيد الثقافي للتآكل والأيلولة للانقراض، والضياع، نتيجة لعوامل بيئية، وثقافية، وحضارية، متعددة، دون أن يجد أي باحث يتصدى لدراسته، فقد ظلت هذه المنطقة من ثقافتنا جزيرة مجهولة، تنام على كنوزها، بينما تركز الاهتمام الدراسي، والتأليفي -غالبا- في مناطق أخرى دون أن يتجاوزها كثيرا حتى الآن.

ومن هنا قررت أن أحول القرابة من عائق عن البحث العلمي، إلى حافز عليه، وهي كذلك أحيانا، إذ لكل بيئة خصوصية وأسرار ورموز وإيحاءات وخلفيات، لا يكاد يفهمها إلا أبناؤها، باعتبار "أهل كل مكة أدرى بشعابها".

ولعل أقرب دليل على ذلك هو أسماء الأسرة التي أتصدى الآن لمقاربة تراثها الشعري؛ فالأسماء الشائعة المتداولة والمشهورة لأفرادها، ليست هي الأسماء التي يوقعون بها علميا في فتاويهم، وكتاباتهم، ووثائقهم عموما؛ فمن أين لباحث يعرف "آدب" مثلا أن يعرف أنه هو عبد القادر بن سيد الأمين؟ ومن أين لمن يعرف "سيدي" بن آدب أن يفهم -من وثائقه- أنه هو محمد بن عبد القادر بن

سيد الأمين البوسيفي؟ أو لمن يعرف شقيقه "الشيخ أحمد" بن آدب، أن يدرك أنه هو الذي يوقع بـ أحمد بن عبد القادر، حسب ما درج عليه هؤلاء القوم من توقيعات ينتزعون فيها الكنى، وألقاب السيادة والمشيخة من أسمائهم، ويتواضعون بكتابة الاسم الأصلي المجرد لكل منهم، حتى ولو كان أصبح شبه مجهول في سياق التداول التوقيري الذي يحظون فيه بالتبجيل والتدليل.

ولعل هذه أبسط المشاكل العلمية التي يمكن أن تواجه أي باحث من خارج محيط الأسرة نفسها، بل إنه لن يمضي وقت طويل حتى يصبح أجيال الأسرة القادمون أنفسهم معرضين لهذا التضليل؛ لتقادم العهد بينهم وبين هذا التراث.

ينضاف إلى ذلك مشكل اختلاف البيئات، وتمايز أخلاقياتها، وعادات وثقافات كل منها عن الأخرى، إذ في ضوء ذلك ربما يتعرض للتضليل أيضا أي باحث أراد أن يقرأ نتاج منطقة معينة، مستصحبا نتائج قراءته لتراث منطقة أخرى، حيث ستتولد عن ذلك مصادرة وقياس مع وجود الفارق.

ونظرا لهذا كله، فأنا الآن أتحرَّكُ في منْطِقة مجْهولة، انْحسرَ دونها مَدُّ الدراساتِ الوطنية، وبقيتْ جزيرةً معرفيةً بِكْرا، لا تسعفك في ارتياد مجاهلها معطيات بحثية سابقة، ولا تستأنس في دروبها الوعرة بخطوات علمية مرت من هنا، لكنني قد وجدت نفسي مسؤولا أخلاقيا، وعلميا، ووطنيا عن تجشم عناء القيام بهذا الدور، محاولة لتلافي جزء من تراث هذا البلد، وهذه الأمة يكاد يحتضر، ويتعرض للاندثار والتلاشي في غياهب الإهمال والنسيان، في الوقت الذي يكتفي فيه باحثونا بتقديم ما قدم، وإنجاز ما أنجز مُسْتَمْرِئينَ "الدور والتسلسل" في تللك الحلقة المفرغة، مع أن مهمة الباحث الحقيقي هي كشف المجهول وتقديمه، لا تكرار المعلوم ولا "تحصيل الحاصل"، هذا بالإضافة إلى أن أغلب الدراسات التي أنجزت عن الشعر والأدب، والثقافة الموريتانية عموما، كانت -غالبا- تنبني على مصادرة تتمثل في إطلاق اسمي موريتانيا وشنقيط -في

شموليتها- على ثقافة وأدب وشعر منطقة معينة من هذا الوطن المتعدد المناطق، والمتمايز الفضاءات.

ولعَلَّ هذا ما يجْعلُ التصْريحَ بالاقتصار على تَناوُلِ أدَبياتِ منْطقة مُحَدَّدَةٍ، أو قبيلة مُفْرَدة، أو أسْرَةٍ مُعَينة -على عِلَّاتِه- أكْثر مِصْداقيةً وشفافية من عنونة هاتيكَ الدراسات القائمة على مُصادرات تدَّعِي فيها تعْميمَ موضوعها، وتناولها باسم "شنقيط" و"موريتانيا"، وهي -في الحقيقة- تستخدم "مجازا مرسلا"، تطلق فيه "الكل"، وهي تريد "الجزء، هذا مع اعتقادي أن مسعاي الشخصي لتقصي ما بقي من خيوط "النسب والأدب" المترابطة في جينات هذه "السلالة الشعرية"، التي تكثفت وتمددت واستمرت في أسرة "أهل آدب"، يعززه أنني لم أتجاسر على هذه المغامرة إلا بعد ممارسة هذه المدونة منذ نعومة أظافري، فقد كنت في طفولتي أتولى نسخ كتابة مسوداتها من مخطوطات العائلة، وأمالي أكابر القوم وحَفَظَتِهم، ثم كنت -بعد ذلك- لا أفتأ أزاحم الأرضة والفئران، وغيرهما من القوارض على بقايا مخطوطات وجذاذات هذا التراث الثقافي عموما، والشعري خصوصا، دائم التنقيب عنه تحت ركام الغبار، وأنسجة العناكب، وداخل أكداس محتويات أشباه المكتبات الخصوصية البدوية المتهالكة المتنقلة هنا وهناك، وفي تلافيف أدمغة وذاكرات رجال ونساء الجيل السابق، عبر جلسات أشبه ما تكون بجلسات التنويم المغناطيسي، وتحضير الأرواح، وتقنيات العصف الذهني، أو التداعي الحر.

وهكذا كنت أستشعر أن ضغط المسؤولية يتضاعف علي أكثر، كلما تقدم بي العمر، وتَخَطَّفَ الموت أشقائي الذين كان يمكن أنْ يُساهِموا معي في هذا المشروع، الذي كنا جميعا نسْعى -منذ نُعُومة أظافرنا- إلى جمْع شَتاتِه وإنْقاذ بعْض جُذاذاتـه، إذ لم يعد يساورني -اليوم- أدنى شك في أن مـوتي مـوت لهـذا المشـروع المؤجـل والمنتظر، والواجب التنفيذ قبل فوات الأوان بإذن الله.

وفي الأخير أعتقد أن منطوق العنوان الصريح، المخصوص بـ شعر أهل آدب، سوف يعفيني، من محاسبة القراء لي على عدم التطرق إلى أي موضوع، أو استطراد، لا يلامس جوهر العنوان، حتى العائلة نفسها قد تحتج على اختزال أبعادها هنا في الشعر فقط، وللجميع أعلن أني رهينُ أطروحتي ووفيٌّ لها، ولم أخادع أحدا بادعاء شموليةٍ حقيقتُها الخصوصيةُ في النهاية، حتى تناولي لـ شعرية قبيلة كنتة عموما، وشعرية فخذ أولاد بوسيف خصوصا، لن يكون إلا تدرجا إلى شعرية أهل آدب بصورة أخص، حيثما قادتني مسارات "الجينات" الشعرية".

ثانيـــا

فضاء الوراثة الشعرية
جدل النسب والأدب

يركز هذا العنوان على مشغل نقدي؛ هو علاقة أسرة معينة بفن الشعر، محيلا بذلك على خلفية وراثية ضمنية أو صريحة، وهي خلفية واجدة أصداءها، في النقد العربي القديم؛ فقد قال الدكتور الشاهد البوشيخي، عن الوراثة الشعرية: إن «الذي يستفاد من بعض النصوص أن الشعراء لا يكادون يتصورون وجود الشاعر، بدون أن يكون له في أصوله لأبيه، أو لأمِّه، عرق مادٌّ بالشعر»[1].

وقد استدل بما أورده أبو الفرج الأصفهاني، حين «قيل للفرزدق: مالك وللشعر؟ فو الله ما كان أبوك: غالب شاعرا، ولا كان صعصعة، فمن أين لك هذا؟ قال: من خالي، قيل: أي أخوالك؟

قال: خالي العلاء بن قرظة»[2].

بل أضاف أن العرب كانوا يعتبرون الشعر أفضل ما يورث، متحدثا على لسان ابن سلام الجمحي، عن نصيب زهير بن أبي سلمى من ميراث خاله بشامة بن الغدير؛ إذ «كان كثير المال، فلما حضره الموت، ولم يكن له ولد، قسم ماله بين

---

[1]– الشاهد البوشيخي: **مصطلحات النقد العربي**، ص 150.

[2]– نفسه، ص151.

إخوته... وأقاربه، فقال له زهير بن أبي سلمى، وهو ابن أخته: ماذا قسمت لي، يا خالاه؟ قال: أفضل ذلك كله، قال: ما هو؟ قال: شعري»[1].

وبعد هذا المهاد النظري عن خلفية وراثة الشعر الكامنة وراء عنوان موضوعنا هذا، أجدني الآن منساقا للحديث عن علاقة هذا التمهيد بـ "بيوتات الشعر"، التي ارتكز عليها هذا العنوان، وهي علاقة عضوية وحميمة، إذ لولا هذه الوراثة لما وجد مسوغ للحديث عن "بيوتات الشعر والمعرقين فيه"، الذين أفرد لهم ابن رشيق القيرواني بابا في "عمدته"، حاول أن يجعله خلاصة لما انتهت إليه آراء سابقيه، من النقاد في هذا الموضوع؛ فقد فرق بين مفهومي "المُعْرِق"، و "ذي البيت"، معتبرا «أن المُعْرِق من تكرر الأمر فيه وفي أبيه وفي جده فصاعدا، ولا يكون مُعْرِقا حتى يكون في الثالث فما فوقه»[2]، أما «ذو البيت فمن عمَّ الأمر جميعَ أهل بيته أو أكثرهم، فهذا فرق بينهما»[3].

وقد ضرب لبُيوتات الشعر ومُعْرقيه أمثلةً متعددة في الجاهلية والإسلام، عبر العصور الأدبية؛ مثل بيت أبي سلمى في الجاهلية، وبيت حسان بن ثابت، وبيت النعمان بن بشير من المخضرمين، وبيت جرير في الإسلام، وبيت أبي حفصة، وبيت الرقاشيين، وبيت اللاحقيين، وبيت أمية الكاتب، وبيت رزين...[4].

ومن جهة أخرى ضرب أيضا أمثلة للمعرقين في الشعر؛ مثل: «نهشل بن حري بن ضمرة بن جابر بن قطن؛ ستة لم يتوال في بني تميم مثلهم شعرا وشرفا وفعالا... ومن المعرقين كذلك: عقبة بن رؤبة بن العجاج»[5].

---

[1]- الشاهد البوشيخي: **مصطلحات النقد العربي**، ص 151.

[2]- ابن رشيق القيرواني: **العمدة**، ج 2، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2001، ص 306.

[3]- نفسه، ص 309.

[4]- نفسه، ص305- 306.

[5]- **العمدة**، 2/ 305.

وفي ضوء هذه التوطئة يندرج مسوغ دعواي بأن أسرة أهل آدب "سلالة الشعر"، أكثر مما هم مجرد بيت من بيوته، إذ إن المعرق من هؤلاء البيوت لم تكد سلسلة سنده الوراثي تتجاوز ستة أفراد، بينما سنرى أن الجينات الشعرية ارتحلت في أعراق هذه العائلة عبر القرون، وغطت أجيالا وأجيالا، وانتقلت من دوائر عائلية إلى أخرى، في سند متصل في الغالب، ومتشعب وممتد، ورغم أن أهْل آدب قد يحتجون على اختزال مكانتهم الروحية والاجتماعية والثقافية في جانب واحد هو الشعر، فإني أصر على ذلك، متغاضيا عن تلك الجوانب الأخرى، ما لم يقتضها المقام دون إقحام ولا تعسف، إذ الشعر هو ما يهمني في هذا السياق باعتباره الأقرب إلى تخصصي، وباعتباره كذلك من أشهر الصفات التي اقترن بها اسم هذه العائلة، مع استحضار أن "الصفة لا تنفي إلا ضدها".

ثالثـــا

قبيلة كنتة والشعر
توأمة النشأة

والواقع أن بيت أهل آدب –فعلا– من بيوتات الشعر المعرقين فيه، بشكل يفرض التفكير في البعد الوراثي الذي مهَّدْنا به لهذه المقاربة العَجْلَى التي أردنا، من خلالها، أن نسلط الضوء على تسلسل الشعر في أفراد هذا البيت الشاعر، وحتى ضمن إطاره الاجتماعي والثقافي الأوسع، أحرى الأضيق، مما يعنى أن هذا "البيت الشعري" ليس ظاهرة فردية معزولة، بقدر ما هو تراكم وراثي عميق وممتد في تاريخيته، فنسْغُ الشّعْريةِ متغلْغِلٌ بعيدا في جُذُورِ وفُروع شَجَرَة أسْرة "أهْل آدبَّ"؛ حيث للجذْر الكنْتِيّ–عموما– صِلَةُ نَسَبٍ مَا معَ جذْر التجْربَةِ الشِّعْرِيةِ في بلادِ "البيضان"، فعِنْدَما نعودُ لحفْرَياتِ الدارسِينَ في نَشْأَةِ الشِّعْر الموريتاني بشِقَّيْه: الفَصِيح والحساني/ اللهجي، نجِدُ لأجْدادِ هذه القَبِيلَةِ نصيبًا مُعْتَبَرا من دعْوَى رِيادَةِ هذا الشِّعْرِ بنوْعَيْهِ؛ فقد نَسَبَ بعْضُ الدارسين إلى الشيخ سيدي أحمد البكاي رِيادةَ الشِّعْرِ الحسَّانِيّ المُفْتَرَضَة أسْبَقِيتُه على الفَصيحِ، في هذه الرُّبُوع؛ وذلك بقوْله في "الگاف" [1] المشْهور:

[1]– "الكاف"، بكاف معقودة، يطلق في لهجتنا على البيت من الشعر الحساني، أصله "القاف: مأخوذ من اسم "القافية"، وهو بهذا اللفظ والمعنى موجود في اللهجات الخليجية.

كْتَـــاب الله كِيمْيَـــا وكْرَامَـــه وكنْـــزْ مـــا تخْـــشَ عْلِيـــه نْفَـــادْ
ديـــرْ الهِمَّـــهْ فِيـــهْ لا تتْعَـــامَ واعْمَـــلْ مِنُّـــهْ خَاصَّـــهْ ووْرَادْ
كـــلْ نْهـــارْ إجـــدْ للْفَهَّامَـــه منُّـــهْ مَعَـــانِي بـــالترْدَادْ[1]

أمَّا في رِيادةِ الشِّعْرِ الفَصيحِ فإنَّ د.عبد الله بن أحميده، في بحْثه عن نشأة هذا الشعر، اعتبرَ أنَّ سيد أعمر الشيخ أحدُ رُوَّادِ هذا الفنِّ في القرْن العاشر الهجْري، من خلال القصيدة الميمية الموْسُومة بـ "القبَّة الخضْراء"، المَنسُوبَة إليْه[2].

وللأمَانةِ العلْمية أسَجِّلُ أنَّي رأيت هذه القصيدةَ منسوبة للشيْخ: "المغيلي" في خزانة المخطوطات بالرباط وليست لتلْميذه: سيد أعمر الشيخ، إذ التبستْ مَراجِعُ الضمَائرِ بيْن الشيْخ وتلميذه، في نصِّ الشيْخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، في كتابه: "الطرائف والتلائد"، فشوَّشَ ذلك على جِهاز التلقِّي عنْد بعْض القرَّاء، ومن ثَمَّ التبستْ نِسْبَةُ النصِّ بيْن الرجُليْن، ونتائج البحث -حتى الإلكتروني- تؤكد نسبتها للمغيلي.

ولكن مهْمَا يكنْ غموض ظروف النشأة دائما، ومن ثم هشاشةُ مُسْتَنَدَات مَبَاحث رِيادةِ الشعريْن، تبْقى نشْأتُهما معًا- في بعض تحليلاتها- توْأمًا لنَشْأة قبيلة كنتة، ولو في أذهان هؤلاء الدارسين على الأقل، عِلْمًا بأنَّ الشيخ سيدي أحمد البكاي "نزيلَ وَلاتة"، هو الجَدُّ الذي تفرَّعتْ منْه جميعُ فُرُوع "كنتة الشرْقيين" والغرْبيين، وحتى الشماليين، بيْنما ابْنُه سيدي أعمر الشيخ هو الجَدُّ العامُّ لـغالبية "كنتة الشرقيين" خُصوصا.

وإذا كنـت قـد سـلبت "كنتـة" حـق ريـادة الشـعر الفصـيح في الفضـاء الشنقيطي، المزعومة لسيد أعمر الشيخ، فإني أعـوض لهـم ذلـك بـدعوى ريـادة جديدة أقدم، منسوبة للجد الأعلى لكنتة/ الشيخ سيد محمد الكنتـي الكبـير، فقـد

[1] - إبراهيم ولد مولود ولد داداه : **مختارات شعرية من غنا البيظان**، ص 02.

[2] - ولد ابن احميدة ، عبد الله: **الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط، مبحث النشأة والأصول**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 2008م، ص 166.

وجدت في قصاصاتي التي لفقتها من مخطوطات أسرتنا وأهالينا في ضواحي مقطع الحجار وغيرها... نص أرجوزة من شعر الدعاء والتوسل بالله منسوبة لسيد محمد الكنتي الكبير، يقول فيها:

الحمـــــد لله الـــــذي بالمِلَّـــــةِ ... أرســـلَ خـــيْرَ مُرْسَـــلٍ للأمَّـــةِ
مُصَـــلِّيا عـــلى النبِـــي وسِـــيلتي ... مُسَـــلِّمًا عليْـــه ألْـــفَ مـــرَّة
مـــوْلايَ، يـــا مـــوْلاي، أنـــت عُـــدَّتي ... وأنْـــتَ مَلْجَـــايَ، وأنـــت عُمْـــدَتي
فطَيِّـــبَنْ عنْـــد المَـــمَات مـــوْتتي ... وخُـــذْ بمعْصَـــميَّ حَـــالَ عَثْـــرَتي
ونـــوِّر القـــبْرَ.. بحـــالِ ضَـــجْعَتِي ... وفي سُـــــؤال المَلَكَـــــيْنِ ثبِّتـــــي
وأمِّـــنِ الروْعـــةَ حَـــالَ وحْشَـــتِي ... وحـــالَ ضَـــعْفَتِي، وحـــالَ قُـــوَّتي
وقَلِّلَـــنْ -عنـــد الوقـــوف- وقفتـــي ... ومـــن لهيـــب النـــار منـــك عِصْـــمَتي
وأنْ تكـــون بـــاليمين قبْضَـــتي ... ولا تُحَاسِـــبَنْ، وثقِّـــلْ وَزْنَتِـــي
وخَفِّفَـــنْ -عـــلى الصـــراط- خطْـــوتي ... لكـــيْ أمُـــرَّ مُســـرْعًا كلحْظـــة
وأســـقني ســـقْيا هنيئـــا مُثْبِتـــي ... لـــرَوْعَتي.. ولـــزَوال ظمْـــأتي
واجعـــلْ ثَبَـــاتي.. وثبـــاتَ نِسْـــبَتي ... لجَنّـــة الفـــرْدوسِ، تلـــك مُنْيَتـــي
لوجْهِـــكَ الكـــريمِ مِتَّـــعْ نَظْـــرَتِي ... يـــا خَـــيْرَ مـــنْ يُـــدْعَى، ويـــا ذا المِلـــة
وارحـــمْ جميـــعَ المُـــؤمِنينَ إخْـــوَتي ... أنـــت المُجيـــبُ فتقبَّـــلْ دعْـــوتي
بجـــاهِ خـــيْرِ هـــاد هـــذي الأمـــة ... صـــلى عليـــه بـــارئُ البَرِيّـــة
وآلـــــه، وتـــــابعينَ السُّـــــنَّة ... وصـــحْبه أهْـــل الصـــفا والصـــفْوة
مـــا نـــاحَ -في دوْحٍ- حمـــامُ أيْكـــة ... وفـــاحَ نشْـــرٌ مـــن خُزَامَـــى رَوْضَـــة

وإذا صحت نسبة هذا النص للجد الأعلى لقبيلة كنتة، ونالت به نصيبا من افتراضات ريادة الشعر العربي الفصيح المتفرق دمها بين القبائل في بلاد شنقيط، فإن ذلك سيكون مناسبا ومتناغما مع الريادات المتزامنة التي نسبها إليه الباحث الحسين بن محنض، في مداخلته التي (تتحدث عن الأب المؤسس لقبيلة كنته

الشيخ سيدي محمد الكنتي، دفين فصك (ولد على الأرجح في العقد السادس من القرن 8هـ/ 14م، وتوفي في العقد السادس من القرن 9هـ/ 15م) على أنه كان بلا شك شخصية علمية ودينية ذات أثر كبير على تاريخ وحضارة هذه البلاد.

ففضلا عن كونه أقدم مؤسس لمدرسة علمية وروحية تعددت فروعها وتسلسلت في أحفاده على مدى قرون متطاولة، فإنه يرجع إليه الفضل في تشكل مجتمع البيضان بنسقه الحالي.

فقد قاد دوره المحوري في حرب شربه الكبرى (دارت من 850هـ/ 1446م إلى885هـ/ 1480م) بين قبائل البلاد الصنهاجية، والقبائل العربية الوافدة من بني حسان، إلى انهيار دولة كانت متحكمة في كامل الصحراء لعدة قرون هي دولة ابدوكل، وقيام دولة جديدة محلها هي دولة بني حسان، كما قاد إلى بلورة تراتبية اجتماعية جديدة، تحتل فيها القبائل العربية الحسانية الوافدة صدارة الهرم الطبقي، وتتمتع فيها قبائل الزوايا الدينية بالريادة الفكرية والثقافية، وتتقاسم فيها هاتان الارستقراطيتان مغارم ومنافع القبائل الصنهاجية المستضعفة التي أوهنتها حرب شربه وعجزت عن الذب عن حماها)[1].

وإذا تجاوزْنا توْأمَةَ جذْر هذه القبيلة بجذْر الشِّعْر، عبْر تأريخ نشْأتيْهما المُفْترضَة في تلك "البلاد السائبة"، إلى ترَصُّدِ علاقةِ الفُرُوع هنا وهناكَ، نجِدُ أنَّ الشِّعْريةَ قد جَعَلَها رائداها المزعومان "كلِمَةً باقيةً" في عَقِبِهما، فتفرَّقتْ مُورِّثاتُها في "جِينات" جميع الأفخاذ الكنْتية، بدليل أنَّ الباحثَ: يحيى بن سيد أحمد، قد أصدرَ مُدَوَّنَةً شعْريةً لهذه السُّلالَةِ المنْتشِرَة في الصَّحْرَاء الكبْرَى[2].

وقد تضمَّنَتْ حوالي (7000) بيْت، متجاوزًا كمَّ المُدوَّنَة الشعْرية المنْشورة حتَّى الآنَ من الشعْر الشنقيطي، في كلٍّ منْ كِتابَيْ: "الوَسيط في تراجم أدباء

[1] – مدرسة الشيخ سيدي محمد الكنتي ودورها في التاريخ الموريتاني، **منشور إلكترونيا**.

[2] – يحيى ولد سيدي أحمد: **ديوان الصحراء الكبرى، المدرسة الكنتية**، دار المعرفة، الجزائر، 2009م.

شنقيط"، لأحمد بن الأمين،[1] و "الشِّعْر والشعَراء في موريتانيا"، للدكتور: محمد المختار بن أباه،[2] اللذيْن لم يُخصَّصْ فيهما مَوْقعٌ معتبر لقبيلة كنتة ضمْنَ القبائل الشاعرة.

[1]- أحمد بن الأمين الشّنْقِيطي (المتوفى: 1331هـ): **كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، الشركة الدولية للطباعة، ط، 1، 2002.

[2]- د. محمد المختار ولد اباه: **الشعر والشعراء في موريتانيا**، دار الأمان، الرباط، ط، 2 ، 2002م.

رابعـــا

الشاعرية البوسيفية
خصوص الخصوص

أ- شاعرية أولاد بوسيف عموما

ولكي نتدَرَّجَ أكثرَ في دوائر شاعرية القوم من العُموم إلى الخُصوص إلى الأخصِّ، نلاحظُ أنَّ فخذ "أولاد بوسيف"، من سُلالة الشيخ سيدي أحمد الكنتي الصغير بن الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد الكنتي الكبير، يبْدو أكثر شاعرية من إخْوانِه الأفْخاذ الستة المُشَكِّلِين معه لأغْلب الكُتْلةِ الكنْتية الغرْبية، رغْم أنَّه لا يُوجد واحدٌ من هذه الأفْخاذ إلَّا وله "شِعْرٌ"، حيث جمعتُ لكل منهم نتفا شعرية مُسْتَنْقَذَةً من يَدِ الضياعِ، لا تُمَثِّلُ إلا "بقية من بَقاياه"، وللتدليل على أن ما قلته ليس دعْوى اعتباطية، ولا انحيازا عاطفيا للأقرب، ولا مغامرة بإطلاق الأحكام جزافا دون تثبت، ودون تأسيس علمي، فيمكن أن تنظر جزء من مسودة "الأخبار" (المدون) لـ هارون بن الشيخ سيدي، المخصص لكنتة الغربيين، وعلاقتهم بحضرة آل الشيخ سيدي، حيث يصعب أن تجد نصا شعريا خارج دائرة أولاد بوسيف، إلا للشاعر المجيد العالم: المامي بن أمحمد بن أعمر بن انبي الكنتي الأزرقي، وهو ابن بنت القوم، إذ يقال إن أم جده أعمر هي بنت الطالب أعمر بن خيري البوسيفي، ولذلك أعطته اسم أبيها، وربما نصيبها من شاعريتهم.

وحتى داخلَ أولاد بوسيف، يتركَّزُ الشعْرُ أكثرَ في فرْع أولاد بوسيف "الخُضْرِ"/ "لحراطين"، "عَلَمًا"، أكثر من إخوتهم أولاد بوسيف "البيض"، فقد تركزت الشاعرية البوسيفية البيضاء -أساسا- في بيت أهل احمد انْبُسيف؛ بيت العلم والورع والشعر، بريادة مُحمد بن مْحمد بن أحمد انْبُسيف، بن حيبلَّ بن باب بن أحمد بن باب بوسيف، الذي كان منبعا ثرا لسلسبيل الشعر الصافي الجميل، يقول من الكامل:

هـل مـن مَنـازلِ نـازلاتِ الأرْبُـعِ ... سـفحتْ نَجِيعـا واكفـاتُ الأدْمُـعِ؟
قُفـرٍ بلاقـعَ، أقفـرتْ عرَصَـاتُها ... ورِحابُهـا.. مـن حَيِّهـا.. المُتَرَبِّـعِ
كانـتْ مَحَـلًّا للحِسَـانِ، كعَابِهـا ... لُعْـس الشـفاهِ اللُّـذِّ عنْـدَ المَضْـجَعِ
واسْتبدلتْ -مـن عِينِهـا- عِـينَ المهـا ... وغـدتْ مَعانًـا للنَّعـامِ الخُضَّـعِ
أمْ مِـنْ هبـوبِ نَسـيمِ نَـمَّامِ الصَّـبَا ... أَمْ مِـنْ أَلِيـلِ الوَامِضَـاتِ اللُّمَّـعِ؟
أمْ مَا لِقلْبِكَ -إنْ تَرُمْ سَلْوَى- طغَـى ... أمْ مَا لِجَفْنِكَ -إنْ يُكَفْكَـفْ- يَهْمَـعِ؟
أنَّـى يُجَمْجِـمُ شَـجْوَهُ مـن شَـجْوِه ... مـا بَـيْنَ مُـذْكِ لِلْحَشَـى وَمُقْطِّـعِ؟
مَكْنُونُـه نَمَّـتْ عَلَيْـهِ مَـدَامِعٌ ... تَحْكِـي النَّجِيـعَ مِـنَ الغُـرُوبِ الهُمَّـعِ
قـلْ للْعَـذُولِ، عَـذُولَ صَـبٍّ هـائمٍ ... مَهْلًا.. عَذُولُ.. عِـنَ المَـلَامِ، وَأَقْلِـعِ
عـلَّ العَـذُولَ بعَذْلِـه مُسْـتَوجِباً ... عَـذْلًا، عـلَى لـوْمِ ادِّكَـارِ الأرْبُـعِ
أوَ مـا دَرَى أنَّ انْكِفَـافَ مُتَـيَّمٍ ... ذَكَرَ العُهُودَ.. مِـنَ الـذِي لمْ يُسطَعِ؟
وعَـنِ المَنَـازِلِ وَالحِسَـانِ وَذِكْرِهَـا ... فـارْفَعْ مَقالـكَ.. فِي الهُـمَامِ الأرْفَـعِ
قَـرَنَ الإلـهُ الـذِّكْرَ مِنْـهُ بِـذِكْرِهِ ... وبِمِثْـلِ ذَا -غـيْرِ الـهُدَى- لمْ يُرْفَـعِ

وكانت زوجته السعيدة بنت ألمين الجيد، سليلة بيت العلم والقضاء في أولاد "حيبله" من أولاد بوسيف الخضر، وقد ورَّث علِمَه وشاعريتَه لابنه: مُحمد بن مُحمد بن مْحمد بن أحمد انْبُسيف الذي التحق بحضرة الشيخ سيدي ضمن من

استقطبه إشعاعها من وفود التلاميذ البوسيفيين، فحيا شيخه هناك بقوله (من البسيط):

يـا خـيْرَ مَـن أمَّـه المُريـدُ للرشَـدِ ... ومَن سعَى نحْوه الباغونَ للصَّفَدِ
ومـن توسـط في الكـمال لجتـه ... وخـاض مـن أبحريـه كـل مزدبـد
مأوى اليتيم ومـن عـض الزمـان بـه ... غوث المساكين، واللُّهْفان، والنُّكُدِ
أنت الـذي تسعف العـافي بحاجتـه ... من غير مَنٍّ.. بهـا.. كَـلَّا.. ولا نكـدِ
إني تطفلْـتُ لاسْـتِمْطارِ نـوركمُ ... يـا مـن تَنُـورُ بـه بَصـيرةُ الخَلَـدَ

وقد أقام مع الشيخ سيدي وابنه وخليفته الشيخ سيدي محمد، وبعد وفاتهما رثاهما معا بآبِدَة من المراثي تليق بمقاميْهما، يقول في لامية من الكامل:

هاجت رسيسَ الصَّبِّ- مهْـلا عُـذَّلِي ... دِمَـنٌ تقـادَمَ عهْـدُها بـالنُّزَّلِ
دِمَـنٌ، مـنَ الحَّـيِّ المُـبِنِّ بسـاحِها ... عِـيضَ الظِّبَـاءُ، وكـلُّ صَـعْلٍ مُجْفـلِ
حُيِّيتِ، مِنْ دِمَنٍ، عَفَتْ، واسْـتَبْهَمَتْ ... واسْـتَعْجَمَتْ عَـنْ رَدِّ قـوْل السُّـوَّل
جَادَتْـكِ أنْـواءُ الغُيـومِ عِهَادُهـا ... وسُقِيتِ صوْبَ الوَدْقِ، سَحَّ المُسْبِلِ
دِمَـنٌ بِسَـاحِ "الكـنِّ"، كـانَ يَحلُّهـا ... حِـزْبُ الهُـدَاةِ، المَاجِـدِينَ، الفُضَّـلِ
عُوجُوا المَطِيَّ، وعَرِّجُوا، وقِفُـوا، بهـا ... شيْئًا، عـلى الطَّلـلِ القـديمِ، المُحْـوِلِ
ظـلَّ الـدُّمُوعُ عـلى الـرِّداءِ كأنَّهـا ... غَمْـرٌ تَحَـدَّرَ عـنْ مُتُـونِ الجَنْـدَلِ
أَسَـفًا عـلى دهْـر "الكُنَيْنِ"، وأهْلِـه ... حُلْـوِ المَعِيشَـةِ، بَعْـدَ مُـرِّ الحَنْظَـلِ
مَنْ لامَ صَبًّا ذاكِـرًا عصْـرًا مَضـى ... فلَذاكَ -عنْ قصْد السبيلِ- بمَعْـزِلِ
طَلَـلٌ عهِـدْتُ بـه الأحِبَّـةَ قُطَّنًـا ... واليـوْم أضْـحَوا بالمَعَـانِ الأفْضَـلِ:
"تنْدُوجَ" مثْـوَى الوافِـدِينَ الآمِلِيـ ... ـنَ جَـدَاهمُ، والطـارِقِين، النُّـزَّلِ
والقـانِتِينَ، الـرافِعِينَ دُعـاءَهمْ ... مَـوْلَاهمُ، بتَخَشُّـعٍ، وَتَـذَلُّلِ
والعَابِـدينَ، السَّـائِحَينَ، الراكِعِـ ... ـينَ، لـرَبِّهِمْ، في هيْبـةٍ، وَتَفَضُّـلِ
وتَأَلُّـهٍ، وَتَـأَوُّهٍ، وتَوَاجُـدٍ ... وَتَلَهُّـفٍ، وَتَلَطُّـفٍ، وَتبَتُّـلِ

والســاجِدِين، المُخْبِتِـينَ، الأَصْدَقِيـــ ـــنَ، الأَرْوَعِـينَ، المُقْسِـطِينَ، العُـدَّلِ
والكـــاتِبِينَ، العـــامِلِينَ، العامِلِيـــ ـــنَ، الزَّاهِـدِينَ، المُرْشِـدِينَ، الـدُّلَّلِ
مـــا مـــنْهمُ إلَّا عريـــفٌ فاضِـــلٌ حامِي الحِمَى، كالليْـث، واقِـي الأَشْـبُلِ
آل المُعَظَّـــمِ قَـــدْرُهُ وسَـــنَاؤُهُ غـوْثِ الـورَى، وشِـفَاءِ دَاءِ المُعْضِـلِ
شَمْسِ الهُدَى، بدْرِ الدُّجى، وسِرَاجِـه شـيْخِ الشُّـيوخ، الفاضِـلِين الكُمَّـلِ
الشيْخِ، سيِّدِنا، الرِّضا، العلم، الهُمَـا م، السَّيِّدِ، المِفْضَـالِ: "سِـيدِيَّ" الـوَلِي
قُطْـب بـه دوْرُ الرَّحـى، وعَـلا عـلَى أَهْـلِ العُـلى، يسْـمو رَوَابِي المَنْـزِلِ
سطعتْ شـوارقُ صـبْح نُـورِ ضِـيائِهِ جَلَّـتْ غيَاهِـبَ سُـدْفِ لَيْـلِ الجُهَّـلِ
غـاثَ الإلـهُ بـهِ الحَنِيفَـةَ بَعْـدَمَا أَوْدَى بهـا جُنْـد البُغَـاةِ الضُّـلَّلِ
وتهـدَّمَتْ أَرْكانُهـا وتسَـاقطَتْ كـلَّ التسـاقُطِ، بعْـد شَـيْدٍ مُعْتَـلِ
فَتَثَبَّتَـتْ بَعْـدَ الـوَهَى، وتَأَسَّسَـتْ وَتَفَرَّعَـتْ، بَعْـدَ انْحِـدَارٍ أَسْـفَلِ
وبِهَا الـمَعَالِمُ أَصْبَحَت -بعْـدَ الـدُّثُو ر- لَوَائِحًـا تَبْـدُو لِعَـيْنِ المُجْـتَلِي
وتَخَافَقَـتْ فِيهَـا البَـوارقُ لُـمَّعاً تُزْجِـي غُيُـومَ المُسْـبِلَاتِ الحُلَّـلِ
وتَصَـوَّبَتْ أَمْطارُهـا، وغِزَارُهـا تهْمِـي بـأَجْرَازِ القُلُـوبِ القُحَّـلِ
تسْـقِي غُيُوثًـا، صَـفْوُها ومَعِينُهـا مـا للمَرَاضِـعِ مِثْلـه مـنْ مُطْفِـلِ
فأقـامَ، مـا فِينـا أقـامَ، حَيَاتَـهُ لمْ يَعْـدُ مَـا قَـدْ حَـدَّهُ الفَـرْدُ العَـلِي
حتَّـى إذَا -لِلْفَـرْدِ وَاهِبِـه- سَـعَى وَسَـعَى بِكُـلِّ تَكَـرُّمٍ، وَتَفَضُّـلِ
حَـازَ الـتُّرَاثَ كمالـه النَّجْـلُ الـرِّضَى لله درُّ الـــوارثِ المُسْـــتَكْمِلِ!
الشـيْخ، سَـيِّدنا، الكَـمَال: مُحَمَّـد غوْث الوَرى، وَجَدَى الجُدُوبِ المُحَّـلِ
غـوْث، هُمـام، فـائق أقرانَـه ليْـتَ الزمـانُ -بمِثْلِـه- لمْ يبْخَـلِ
مـا حـادَ، عـنْ نهْجِ الهُـدَاةِ، دَوَامـه حتَّـى مَضَـى نحْـو المَلِيـكِ الأعْـدَلِ
سـارتْ مَسِـيرَهُما القـويمَ سَـبِيلُه أمُّ الأيَـامَى، والضَّـعِيفِ الزُّمَّـلِ:
مَحْجُوبَ"، مَنْ حُجِبَتْ بكـلِّ فَضِيلةٍ وجميلـةٍ عـن كـلِّ خُلْـقٍ أرْذَلِ

خَلَفَـتْهُما -كـلَّ الخِلَافَـةِ- للـوَرَى ... وَتَحَمَّلـتْ مـنْ عِبْئِهـا المُتَحَمَّـلِ
صـعَدَتْ مَصَـاعِدَ دُونَهـا كَـلَّ القَطـا ... وتضـاءلتْ هِمَـمُ الرجـالِ الكُمَّـلِ
أقْسَمْتُ مَـا سَـمَحَ العُصـورُ بمِثْلِهـا ... ونَظيرِهـــا، في آتِهـــا وَالأوَّلِ
أعْيَـا عـلى الوُصَّـافِ أَدْوَنُ وَصْـفِهَا ... مـنْ مُـوجِزٍ، أوْ مُطْنِـبٍ، وَمُطَـوِّلِ
كـذبَ الـرُّوَّامُ خِصـالَهَا بَتَعَـدُّدٍ ... كيْفَ الوَرَى يُحْصِي الحَصَى بِتَحَيُّلِ
اللهُ يَجْعَـلُ، فِي البَنِـينَ، مُرَادَهـا ... وَيَمُـدُّ في أيَّامِهـا والطُّيَّـل
واللهَ أرْجُـو أنْ يُحقِّـق نسْـبتي ... لجنـابهم فضـلا، وكـل مُـؤَمِّلِي
ولكلِّ مَنْ ذِي الحضـرة الغرَّا حـوتْ ... مـن قـاطنٍ أو زائـرٍ متطفـل
مـن أبـيض، أو أسـود، مـن لاجـئ ... أو داخـل، أو سـائلٍ مُتَوَسِّـل
ومُغَـوِّث أمـلَ الإغـاث بغَوْثِهـا ... داني المكانـة، أو بعيـد المَنْـزل
ولكـلِّ أمَّـةِ أحْمـدَ الهـادي الـرضى ... صَـلَّى عليْـه إلهُـه مـن مُرْسـل
طـال العُـدونُ ببـابكمْ وإقـامتي ... وتَمَلُّقِـي، وتضـرُّعِي وَتَوَسُّـلِي
أهْـلَ الوفـا، عـارٌ شـنيعٌ أمْـرُه ... أنْ لا أَؤوبَ بكـلِّ فضْـلٍ أجْـزل
ومُسـاعَفا بنجـاح مـا أمَّلْتُـه ... ورغبْتُـه مـن عاجـلٍ ومُؤجَّـلِ
ومـن الجليـل صـلاتُه وسـلامُه ... تترى عـلى الهـادي الرسـول الأجْلـل
والآل، والأصـحاب، مـا أوْلَى المنـى ... حـزْب الهـداة المَاجـدين الفُضَّـلِ

وحتى أخته أينات بنت أحمد انبسيف، لم تترك نصيبها من ميراث أبويهما، علما وتقوى، وشاعرية، فكانت شخصية عظيمة تدرك مؤثرات العراقة في نجابتها، نسمعها تفتخر قائلة:

إنِّي فتـاةٌ عُـروقُ الفَهْـمِ جـاذبتي ... يكـادُ ذهْنـيَ- دون النَّحْـوِ يَكْفِينـي

وقد خلد أمَّاه بن انْبي بن الأزرق مكانتها، حين خاطبها متوسلا ومادحا في فائية من البسيط:

مـــن آبـــق..... علـــم الإلـــه بـــه ... أغنَاهُ عن ذكْـر مـا فيـه مـن الصَّـلَفِ
إلى التـي رضـعتْ مِلْـحَ التـي رضـعتْ ... ثدْي الكرام، هُداة العِلْـمِ والـشرَفِ
تأبَّهَـتْ أنفـا كـان الزمـان بهـمْ ... حـلي المليحـة مـن مَكنونـة الصَّـدَف
تأمَّهَـتْ خـيِّراتٍ، كـان أتْحفهـا ... ربُّ البريـة، حظـا، أحسـنَ التحـف
هـمُ الألى علِمُـوا، والعِلـم زانهـمُ ... عطـاءَ مَـنٍّ، بـلا كـدٍّ، ولا كلَـفِ
فقلت-أنـاتُ- مـا قـد قلـتُ، مُلْتَمِسـا ... منْكِ دُعـاء الصـديق الناصـح اللطِـف

وقد انحدرت مورثات العلم والشعر والتقوى أيضا إلى الحفيد: الجيلي بن أحمد انبسيف، أكبر مريدي الشيخ أحمد بن آدب وصديقه وزوج ابنته فاطمة، الذي يقول في إحدى مراثيه لشيخه (من الطويل):

إلى القـبر قـد سـار الحبيـب وودعـا ... فلا غرْو أنْ يضـحى الفـؤاد تصـدَّعا
حبيـبٌ، أديـبٌ، يمْـلأ العـيْنَ بهْجَـة ... ويَمْـلأ سـمْع الأذن مجْـدا مُوسَّـعا
فعجل إلهي الرَّوْح، والراحَ، والـرِّضى ... وجَنَّـاتِ عـدْنٍ مِسْـكُها قـد تضـوَّعا
إلى بلَـــدٍ قـــد حَلَّـــه، وأجَلَّـــه ... فـلا يَلْـق تَبْكيتـا، ولا يَلْـقَ مَفْزَعـا

وقال في مقدمة بائية من الوافر:

دعتْـكَ إلى التَّـذَكُّر والتصـابي ... ديـــارٌ عافيـــاتٌ للرَّبـــابِ
ربُـــوعٌ لمْ تَـــبِنْ إلا بَـــلَأْيٍ ... بِبَـاقِي النُّـؤْيِ، والسُّـحْمِ الصِّـلابِ
عَفَتْهـا الـريحُ، مـنْ شرْقٍ لغـرْب ... وسُـودُ المُـزْنِ تَهْمِـي بانْسـكابِ
تـدُورُ العِـينُ في الغِيطـانِ منْهـا ... غُـدُوًّا، والمَسَـاءَ إلى الـرَّوَابِي
وَقَـالُوا: قَـدْ نَـأَتْ، حتَّـى تَرَامَـتْ ... إلى أرْضٍ، مُحَجَّبَـةِ القِبَـابِ
قِبَـابٍ للصـلِيبِ وتابِعيـه ... بِعُظْـمِ البحْـر، والأُكْـم الصعابِ
فقـالَ العـاذلون: الـزْمْ سُـلُوًّا ... فقـد عُـدَّ السَّـلُوُّ مِـنَ الصـوَابِ
فقلـتُ: أكُـلُّ ذِي شَـوْقٍ نَـآهُ ... حبيـبٌ يَرْتَضـي عَجْـزَ الكِـلابِ؟
ولكـنْ سـوْفَ أُعْمِـلُ ذا ثَـبَاتٍ ... مـنَ الأعْـوامِ، بعْـدَ بُـزُولِ نـابِ

تَمَطَّـــرَ في المَرَابِـــعِ نِصْـــفَ عَـــامٍ فَجَـــاءَ بِتَامِـــكٍ، كالنُّصْـــبِ، نـــابي

وهنا نختتم نماذج شعره بومضة طريفة حاول من خلالها إعطاء مجلس الشاي وسمره مقصدا تعبديا:

تنبـــهْ، لـــيس يجمـــلُ أنْ تنامـــا ومُدْنِي الكأس-ويْحَكَ- قدْ "أقامـا"
وقـد عبـثَ النسـيمُ بكـلِّ غصْـنٍ فهـزَّ السَّـعْفَ، واحْتضـنَ الخُزامـى
مُنـادِي الصُّـبْحِ كـارَبَ أنْ ينـادِي أنوْمًـا عـنْ صَـلاتِك، والنـدَامَى؟

وأخيرا تنتهي مورثات هذا البيت العلمي الشعري البوسيفي إلى خاتمة شعرائه محمد بن الجيلي بن محمد بن محمد بن أحمد انبسيف؛ هكذا أربعة أجيال في نسق، توارثوا الشعر كابرا عن كابر، ومن نماذج شعره قوله يستشرف -بتشوق- قرية الشيخ أحمد بن آدب، في وادي "النبط" بالوادي الأبيض بتكانت:

حيِّي الـديارَ التـي مـن أشْرَفِ المُـدُنِ نُشْفَى بهَـا مِـنْ جَمِيـعِ الشـوْقِ، والحَـزَنِ
كـنْ عـاملا نحْوهـا بِعَـيْهَمٍ أجُـدٍ تطْـوي الـدُّنا دُونَهَـا فِي الآلِ والحَـزَنِ
تلك الديارُ التـي بـ "النـبْط" شـيَّدَها قـوْمٌ كـرامٌ، عَلَـوْا، مـن سَـالفِ الـزَّمَن

ب- شاعرية أولاد بوسيف الخضر

وللبرهنة على تركز الشعر في الفرع الأخضر من أولاد بوسيف نستحضرُ هنا أسْطورةً تُسَمَّى "القصيدةَ الأرْبعينِيةَ" مُتواتِرَةً في أوْساط الجَمَاعَةِ كابرًا عن كابر، تقولُ: إن أربعين فارسا من "أولاد بوسيف الخضْر" قدْ شكَّلُوا ذاتَ يوْمٍ طليعةَ "سَلْفَةً" لجيْشٍ، جهَّزُوه من أعْماق "تِيرَس"؛ لنَجْدَة إخْوَتِهم "أولاد بوسيف البيض"، المُحاصَرين من طرَفِ حِلْفٍ مُعادٍ لهمْ، في منطقة "شَگارْ گادِلْ"، في ولاية البراكنة الحالية، بوسَط موريتانيا، وفي طريقهمْ لخوْضِ معْرَكةِ فكِّ الحِصارِ هذه ضمن حروب البلاد السائبة، ارْتَجَلَ كلُّ واحدٍ من فرْسانِ "السَّلْفَة" الأرْبعينَ بيْتا شعْريا، حتى اكْتملتْ "القصيدةُ الأرْبعينية"، التي ما زلتُ

أحْفظُ منْها ثلاثة أبيات، علِقت بذاكرتي من قصصِ الرُّوَاة، في مَجالسِ السُّمَّار:

غـدتْ أرْضُـنا والـدهْرُ ديْدنُـه المَكْـرُ كأنْ لمْ يكنْ فيهـا "حَمَـاءٌ" ولا "مَكْـرُ"
ولا استنَّ فيها –بالعَـشِيِّ– صَـوَافِنٌ ولمْ تَعْـدُوَنْ فيهـا لَهَـامِيمُها الحُمْـرُ
فأضْـحتْ ولا مَرْعَـى بهـا لِخَرُوفَـةٍ وكانتْ بِها ترْعَـى الهُنَيْـدَاتُ والعَكْـرُ

ومَهْما كانت خياليَّةُ هذه الأسْطورة الفُرُوسية الشعْرية، فإنَّ الأساطيرَ لا تنْبَثِقُ عادةً إلا من نَوَاةٍ واقِعيةٍ، يستطيعُ الخيالُ أنْ يبْنيَ عليْها، بمعْنى أنَّه لوْ لمْ يكنْ الشعْرُ منتشرًا يومَئذٍ بشكْلٍ واسعٍ في ذلك الفَخِذِ الكنْتِي، لَمَا كانَ هناكَ مُسَوِّغٌ لميلاد هذه الأسطورة، وقبول تداولها أُمْثولةً في الذاكرة الجماعية المحلية؛ فوُجودُ أرْبعينَ فارسا من فخذٍ واحدٍ، تمَّ انتقاؤهم طليعةً على مَعايير حَرْبية، وهم–في الوقت نفسه– يستطيعون ارْتجالَ الشعْر بيْتا بيْتا، على طريقةِ "الإجازة"، هو في الحقيقة مُعْطى له دلالتُه الكبْرى والعميقة، في سياق تأطيري للتسلْسُل الوِراثيّ للشعْر، بالنسبة لـ"أهل آدبّ" "بيْت القصيد"، في مُقارَبتي هذه، إذ يُغْريني بمُواصلة المُغامرة –في تتبُّع سيْرورةِ "الجِينات" الوراثية الشعرية– أنَّها تتكثَّفُ أكثر كلما اقتربْنا من الدوائر الضيقة لهذه الأسرة.

ج– شاعرية أهل مْحمد بن الطالب أعمر بن خيري

1– المختار بن مْحمد؛ فداخل "أولاد بوسيف الخضْر"، يتركَّزُ الشعر أكثر–حسبما وجدنا– في هذه الأسرة، أعْمَام "آدبَّ" وبنِي عمومته، فهذا عمه:

المختار ولد أمحمد، الذي يبدو نضج تجربته الشعرية، من خلال النموذج الوحيد الذي وجدناه له، يقول من البسيط:

أبْدَى منَ الشَّـوْقِ مـا قـدْ كُنْـتُ أُخْفِيـهِ وكنْـــتُ أزْعُـــمَ أنْ لا شيْءَ يُبْدِيـــهِ
أني مـــررت عـــلى ربـــع عهـــدت بـــه أســـماءَ، لا بـــرح الوســـمي يســـقيهِ
عهْـدِي بـــه، وظِبَـــاءُ الأنْـــسِ تَقْطُنُـــه واليـــوم صـــارت ظبـــاءُ الـــوحْشِ تُحْييـــهِ

كأَنَّــه مــا مشــتْ -مَيْسًــا- مُنَعَّمَــةٌ ... جَيْدَانَــةٌ، كقَضيــــبٍ، ناضــرٍ- فــيهِ
وَلا تَجْلُبَــــبَ، بالأزْهـــار، يانعـــةً ... ولا تبسَّـــــمَ رَوْضٌ، فِي أعَالِيـــــهِ
جادتْ، عليْهِ -مـن الـرحمن- ساريةٌ ... مــن الودائــقِ، تجْــرِي فِي نَواحِيــهِ
لمــا وقفــتُ، سَــوَاءَ الربْــع، مكتئبــا ... حــيرانَ، ذا زفــرات، فقْــدَ نادِيــهِ
آلى فــــؤاديَّ: لا ينفــــكُّ مُحْتَرِقًــــا ... وأقْسَــمَ الجَفْــنُ: لا تَرْقَــى مَآقِيــهِ
نادٍ- بـه- أنستْ روحـي، كـما أنسـتْ ... روحُ المغيــــث بمَــــوْلاهُ، يُناجِيــــهِ
خليفــة المصــطفى، حقــا، ووارثــه ... شـيخ المشـايخ، شـمْس الـدين، مُحْيِيـهِ
حــازَ الوَلايَــةَ طــرًّا، في صِــباهُ، وقــدْ ... فــاق المشــايخَ، لا شَــيخٌ يُبَارِيــهِ
نَاجَى، وشَاهَدَ منْ يَهْـوَى، بِـلا حُجُـبٍ ... فـازْدادَ مـا كـانَ -بـالنَّجْوَى- يُقاسِـيهِ
أهْــدَى أناســا، وأوْدَى آخــرين، فــإِنْ ... تعجــبْ؛ فــذاكَ كثــيرٌ، في مُرِيدِيــهِ
كهْفٌ من الخـوْف، إذ مـن كـل ناحيـةٍ ... يــأتي، وإذْ منــعَ الــذْ كــانَ يُجْرِيــهِ
كَــفُّ الغَــمَامِ، فهُــو بحْــرٌ، لــه مَــدَدٌ ... يجــري عــلى الخلــق؛ دانِيــهِ، ونائيــهِ
تبــــارك الله؛ لا تحــــصى مناقبــــه ... عمَّــتْ، عـلى الكـلِّ -بـالنعْمَى- أيادِيـهِ
ثــم الصــلاة، عــلى مــن هــوَّ وَارِثُــهُ ... من لم يكـن، في العـلا، شـخص يدانيـهِ

وهكذا بدا الشاعر هنا متمكنا من أدواته الفنية، ومتضلعا بتربيته الدينية الصوفية، المستمدة - كما أرى- من حضرة أهل الشيخ سيد المختار في أزواد، ومنه ورث ابنه:

2- أحمد بن المختار؛ فنصوصه الآتية تؤكد أنه متمكن - من ناصية الشعر العربي الفصيح، ومما استنقذنا من شعره قوله يدندن حول تشوقه إلى مرابع قومه، في منطقة "أگان" شمال مقاطعة مقطع الحجار الحالية، إذ يعتبر ابتعاده عنها غربة مُمِضَّة، حتى ولو كانت إلى منطقة "فصْك"، مدفن سيدي محمد الكنتي الجد الجامع لكنته قبيلة الشاعر، يقول من الطويل:

ألا فـاعجبَنْ -يـا قلـبُ- مـنْ مُلْـكِ ذِي المُلْـكِ
إذَ أنـتَ لـدَى الجـوَّا، وفي السـفْحِ مـن "فَصْـكِ"

وقـــد كنـــتُ لا أنفـــكُّ بـــين مَنـــــــازل
بهـــا نِـــيطَ -في جِيـــدي- تَمَـــائمُ، في السِّـــلْكِ
فعـــاتق "تِنْقَـــرَاشَ"، فـــ"النَّبْـــك"، فـــالرُّبَى
إلى السَّـفْح مـن "وَازَانَ"، فـالنِّعْفِ مـن "ينْـكِ"
بـــلادٌ بهـــا كنَّـــا- عـــلى رغْـــم حاســـدٍ
أمَـــامَ الـــوَرَى، في العلْـــم، والحلْـــم، والمُلْـــكِ
وقـــد كـــان للأيـــام -في الدهـــر- للفتـى
منـــازلُ، مـــن رحْـــبٍ، عليـــه، ومـــن ضـــنْكِ
ومـــن عـــاشَ في الأيـــام لا بـــد أنْ يَـــرَى
حـــوادث مِنْهَـــا مَـــا يَـــسُرّ، ومـــا يُبْكِـــي

وغير بعيد، من هذه المرابع يستثير شجوه نزوله في منطقة مقطع الحجار، من ربوتي " التوأمين"، غربيه، إلى "التاشوط" (تاشوط أولاد بوسيف) شرقيه، فيقول من الكامل:

أغْرَى المَـدامعَ، والشـجونَ، هبـوطي بـ"التَّوْأَمَيْنِ"، ضُحًى، وبـ"التاشوطِ"
أيامَ كنتُ بهـا، و "كنْتَـه" برَبْعِـــها والدهْرُ يَرْفلُ، مـــائسا، بمُـــروطِ
...مَهْلا.. فهذا الـدهْرُ مـا اسْـتِقْرارُهُ -في صَرْفِه- مِنْ شَرْطِهِ المشْـــرُوطِ
ما شَـأنُ حُـرٍّ.. مـاهِرٍ بصُـــــرُوفه في رحْمَة الرحْمَـــانِ.. شَـأنَ قنُـــوط
ولقد محَضْتُ النُّصْـحَ.. غـيْرَ مُغَـالِطٍ فِي هَذْيِ خبٍّ.. بالفُضُولِ.. غَلُـــوطِ
إنْ يَهْـذِ -فِي إسْـقَاطِ قَـدْرٍ- سَـاقِطٌ فَارْفضْهُ -فِي هَذَيَـــانِه- لسُقُـوطِ

- أحمد بن المختار بن محْمد: شعر "الزريگة": الارتياد والامتداد

هنا، على يد هذا الشاعر من أبناء المختار بن محْمد بن الطالب أعمر بن خيري، ضمن دائرة الشعرية البوسيفية، وفي منطقة آگان -بالضبط- ربع عزة القوم وعزتهم، تسجل البطاقة الأولى لميلاد هذا الفن الشعري المستحدث الهجين، الذي

يمزج بين مفردات العربية الفصيحة، ومفردات اللهجة الحسانية الدارجة في القصيدة الواحدة، فها هو عندما رمت به الحياة بعيدا عن معشره الذين يراهم "أمام الورى في العلم والحلم والملك"، ومرابعه الآنفة التي يراها جنة الدنيا، ينفجر على لسانه أول نص-فيما نعلم حتى الآن- من شعر "الزريگة" على إيقاع البسيط:

يـا مـن لمكتئـبٍ، حـيْرانَ، ولْهانـا ... نائي المُؤنس، مـن أحْيـاءِ "آگانـا"
رمـى بـه القـدَرُ المحتـوم في بلـد ... مـا إن يـرى أحـدا يوليـه إحسـانا
يبيت في دهش "ديْسانَ" من سـغب ... وفي النهار ضـحى، حميـان، عطشـانا
ينام في "الصمر" في برد "يگبْگِبُـهُ" ... ولا فراش يقيـه الأرض "گرْسـانا"
يظـل إن ظعنـوا رجـلان بيـنهم ... لم يحملـوه إلى أن راح حـسرانا
لا مـن يقـول لـه: "هـجٍّ"، فتنفعـه ... "فلحْـرَ گـاغْ" أحـد يعطيـه كتَّانـا
إنْ رامَ مـن أحـدٍ بـذْلا هُنـاك غـدَا ... مِثْلَ "الصگوط" الذي يجيئُ حشْمانا
عند التحاليـب وقْـتَ العَـتْم منطويـا ... ولم يجـدْ بَلـلًا فقـام نكْـدانا
يـا ليْـتَ شـعْريَ، هـل آتي إلى فضِـلٍ ... يزيـلُ -إنْ جِئْتُـه- عنـيَّ- إدْخانـا
أو شـئت غانيـة، حـوراء، قاربهـا ... بـيض، مُنَعَّمَـة، عجْـزاء وهْنانـا
ريـا المَعاصِـم، مـلْءَ الـدرْع خرْعَبَـة ... كـأنما ركبـت أوصـالها بانـا
لميـاء، في لعـس، يكفـي تبسـمها ... من كل ما يشتهي مـن كـل مـا كانـا
أو شـئْت ذا أدبٍ، قرْمـا، أخـا كـرم ... مـن رامَ نائلَـه لم يلـقَ حرْمانـا
لم يَعْتَـذِرْ، قَـطُّ، مـنْ عـدْمٍ يكـونُ بـه ... إلى العُفَاةِ، ويُعْطِـي العـاطي عجْلانـا
ولا يـذوق مـذاقا وسْـط خيْمتـه ... عـنْ جـارِه، أبَـدًا، إنْ كـانَ غرْثانـا
"مَنْدَرْتِ" عن معْشر ذا هوَّ وصفُهم ... أهْـل المَكـارم ذكْرانـا ونِسْـوانا
سِيَّانِ، في المَجْد، يا منْ كنْتَ جَاهِلَهم ... بَنُـو أبي السـيْف، لا فخْـرا، ونكْرانـا

وينسب إليه من فن "الزريكة":

ووادٍ، بــه "آزٌ"، يُحَــاشُ، وَعَرْفُــه يُحاكِي شذَى الريْحانِ، إذْ نِبْقُه "شَنْكا"
قد اخضرَّ من "لگليَّ" شـجْر تِلاعِـه ومن نبقه تخــضر، محمـرة، "نَبْگـا"
لقيــت بــه أســما فــأفرحني اللقــا كما يفرح الصبيان في الصيف "بالرَّفْگـا"

فهاتان الشذرتان توحيان بأن أحمد بن المختار بن مْحمد بن الطالب أعمر بن خيري، هو رائد شعر الزريگة[1]، في الأدب الشنقيطي، إذ يبدو أنه كان أسبق إلى ريادة هذه المدرسة، فهو أقدم زمنيا من روادها المشهورين في منطقة القبلة، فقد كان في بداية القرن 13هـ، إذ قال نونيته "الزرقاء" في ظروف طلب العلم الشاقة، وشظف حياة المتغربين من تلاميذه بين "المحاظر".

وهكذا يبدو أن نصه الأول هذا، يمثل مراهقته الشعْرية، ومراهقته العلمية، وهذا طبيعي مادام يمثل أيضا مراهقته العُمْرِيَّة، فهو في مرحلة التغرب لطلب العلم، التي هي قرينة عادة بفترة الصبا والشباب، مع أن هذا كله لا يغض من قيمة سبقه الريادي، في مجال فن الزريگة، فلم نجد حتى الآن نصا يتقدمه زمنيا، هذا مع أن النص الثاني من فن الزريگة، يبدو أكثر نضجا، وتساوقا مع نضجه العمري والعلمي والشعري.

وتأصيلا هنا للتسلسل الشعري الوراثي في هذه العُتْرَة امتد تعاطي هذا الفن داخل الحلقات اللاحقة من أجيال هذه الدائرة من الشعرية البوسيفية الخضراء؛ حيث وجدناه مستخدما عند جدنا عبد القادر (آدب) بن سيد الأمين (1820-1875م)، الذي هو بن عم رائده: أحمد بن المختار بن مْحمد، إذ يداعب "علبة شمه"، التي لا ندري حقيقة رمزيتها هنا، فيقول:

---

[1]- الزريقة تصغير الزرقاء، وهي لا تحيل على الزرقة في اللغة العربية الفصيحة، بل تساوي الرقطاء ، في تعابير اللهجة الحسانية، عن الألوان، وقد أخذت مفهوم الرقطة هذا من كونها تمزج في معجمها الشعري بين الألفاظ الفصيحة والعامية الحسانية.

لقد فاح نشر المسك من نحو "بطتي وذكرني -لما خديجة شَطّتِ-
نوافحُ منْ أنفاسِها، عنبريةٍ إليْها أُنُوف الناشقين تمَطّتِ

ثم يواصل العزف على إيقاع رائد فن "الزريگة" المشار إليه سابقا، فيقول مازجا بين الجد والهزل، مزجه بين العربية والعامية في نصيه السابق واللاحق:

أمولاي، جُدْ لي بالمعارف، والتقى وعِلْمٍ، نَفُوعٍ، صَفْوُهُ لن يُكَدّرا
وجُدْ لي بـ "شَمٍّ"، ظرفه: "كَرْكَرِيَّة" إذا نشق "الشَّمَّامُ" منها تقرْقرا
وإنْ "يَكْمِ" -مِنْهَا- ذو "اكتِماءٍ"، "تخرَّرَتْ به "اللوْسَه"، (حَتَّى يَحْسبِ الجوْنَ أشْقَرا)[1]

وحتى الشيخ أحمد بن آدب (1944م) يساهم في هذا الفن، إذ يقول:

أراكِ مَقالَ "الگارظينَ" سَمِعْتِه
وفَا "الگرْظَه" -في المَشْهور- تأكلُه "الأرْظا"
فلا تسْمَعِي قوْلَ امْرِئٍ جاءَ "گارظا
كما أنا -قدْما- فِيكِ- لا أسْمَعُ "الگرْظا"
فمالي، ونفسي، في رضاك دفعتهم
جميعا.. و"اهَيْهْ".. "افْطَنْتِ".. ذا لمْ يكنْ "عَرْظا"

كما يقول متقصدا تجنيس القوافي ولزوم ما لا يلزم فيها:

هل من كَمِيٍّ "يُكَمِّي" مذْنفا "تاري" لاقى الهموم بأشفاع وأوتار
ولا مؤنس يلقاه يؤنسه لا من قريض، ولا تحريك أوتار

وأخيرا تتدخل الشاعرة خديجة بنت سيدي بن آدب (1968م)، واصفة لحظات طرب حلوة، سرقتها من ريب الزمان، مع المطرب الموريتاني الأشهر سيدات بن آب:

[1]- هناك إحالة على بيت لأمرئ القيس:

ونَشْرَبُ حَتى نحسِبَ الخيلَ حوْلنا نِقَاداً وَحتى نحسِبَ الجَونَ أشقَرَا

مـن الخمْـرِ أيـامٌ أَحِلَّـتْ لنـا شرْعـا وقد مُنِعَتْ للغـيْر -يـا عجبـا- منْعـا
يُعَلِّلُنـا فيهـا "سِـدَاتِ" بشـدْوه و"بالتِّيدِنِيتِ" "أَمَّلِّ" يا ليْتها بضْعا
صـبوْنا بهـا، واللهُ يعْلـمُ أنَّهـا من اللَّهْو، والأفْرَاح- "زَازَتْ بنَا الطَّلْعا"

وبعد هذه الجملة الاعتراضية التي استدعتها ضرورة إنشاء بطاقة ميلاد جديدة لشعر "الزريگة" في بلاد شنقيط، أقدم من تلك البطاقة التي كانت رائجة ومتداولة، نعود لما كنا بصدده من تتبع تنقل جينات الشاعرية في السلالة البوسيفية الكنتية، في دائرتها "الخضراء"؛ حيث نجد في صميم دائرة أهل أهل مْحمد بن الطالب اعمر بن خيري:

3- محمد بن المختار بن مْحمد بن الطالب اعمر بن خيري، قال عنه الأستاذ هارون بن الشيخ سيدي: إنه (سكن مع الشيخ سيديَّ وصحبَهُ وأحَبَّه، ولَّما أرَادَ المَسيرَ عنْه قَالَ فيه من الكامل هذه القطعة الرائقة:

عـاشَ الفِـرَاق حَلِيـفَ عـيْشٍ أنْكـدِ واسْـتبدَل... الاسـيف مـن الـدَّدِ
وغـدا الغـدُ الآتي عليـه بـما بـه وَعَـدَ الأحِبَّـةَ فِي غـدٍ مِـنْ مبْعَـدِ
كـمْ صَـيَّرَ الأشْـفاعَ أوْتـارًا، وكـمْ عـيْشٍ هَنِـيءٍ عاضَـهُ بالأنْكَـدِ
وكَـم اقْتَـضى بقضـائه كـوْنَ الفتـى بِحبِيبـه في حـيْرَةٍ وتَـرَدُّدِ
إنَّ انْتظـارَ قضـائِهِ لأَحِبَّتـي أفْنَـى تَحَمُّـلِيَ الأذَى، وَتَجَلُّـدِي
وأَعَـارَنِي سَـفْعَ الجـوانح، والحَشـا بحَريـقِ حُـزْنٍ في الفـؤادِ مُوَّقَـدِ
وَلُـزُومُ نفْـسِي حَالَـةً مَقْسـومَةً لِتَفَكُّـرٍ، وَتَنَمُّـرٍ، وَتَنَهُّـدِ
فَتَوَقُّـعُ التفْريـق أقْطـعُ للحَشـا وأمَـرُّ مِـنْ وقْـع الفِـراقِ المسْـنِدِ
ولـذا رفعـتُ يـدَ الـدُّعاءِ عَـلى غَـدٍ ظرْفِ الفـراقِ بقـوْلِ أقْصَـدِ مُنْشِـدِ:
"لَا مَرْحَبًـا بِغَـدٍ، ولا أهْـلا بـه إنْ كـانَ تفْريـقُ الأحِبَّـةِ في غَـدِ"[1]

[1]- مسودة الجزء الخاص بكنتة من **"الأخبار"**، ص 113- 114، والكسر الموجود في وزن الشطر الثاني من المطلع موجود في المصدر.

ورغم أن الأستاذ هارون لم يصرح بتلمذته على الشيخ سيدي، وإنما قال: إنه سكن معه وصحبه وأحبه"، فإنه عندما رجع لأولاد بوسيف كان مرجعيتهم الروحية ومركز مشيختهم، وعليه تتلمذ ابن عمه: عبد القادر(آدب) بن سيد الأمين، قبل التحاقه بالشيخ سيدي نفسه، وعندما شعرت جماعة أولاد بوسيف بالفراغ الروحي الذي خلَّفه، أرسلت إلى الشيخ سيديَّ تطلب منه أن يرسل إليهم تلميذه المقرب: محمد بن أحمد الصغير البوسيفي، معللين ملتمسهم بقولهم: «فإن الحاجة إليه شديدةٌ لوفاة أخِيكمْ: محمد بن المختار، وغيره من أهل السياسة والأنوار... فاعزموا عليه بتعجيل المسير، وعدم التأخير، لنتخذه خلفا من السلف»[1]، وهنا أيضا لم يصفوه للشيْخ سيديَّ إلا بأنه أخوه...

ويرجع الأستاذ هارون كثرة توافد رجالات أهل الطالب اعمر بن خيري بقوله: «ومما تقدم من ذكر رجال أهل الطالب اعمر بن خيري المذكورين، وتتابعهم على الشيخ سيدي، ترى مدى تأثرهم بسابق ألْفَةِ محمد بن سيد ألمين معه، زمنهما عند الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، رحم الله السلف، وبارك في الخلف»[2].

4- الشاعر: أحمد بوه بن محمد بن أحمد بن الطالب اعمر بن خيري، ابن عم أحمد بن المختار الآنف الذكر، يقول في همزية من البسيط متعلقا بآگان موطنه، ومتشوقا لحضرة أهل الشيخ سيد المختار:

يـا بـرْدَ مـا هـبَّ مـن نحْـو الأحِبَّـاءِ ... من ناسم دبَّ في صدْري وأحْشائي!
هبــتْ عــليَّ نُســيْماتٌ.. تُجَــدِّدُ لي ... ذكْرَ الأوِدَّاء، فمنْ لـــــــي بالأوِدَّاء؟
مَــنْ لي بِــرَدِّ زمــانٍ، لا مَــرَدَّ لــه ... يُغْضِي جفونَ المَساوِي كـلَّ إغْضـاءِ
وأهْـلِ دارٍ.. بهـا دارتْ- مُشَعْشَـعَةً ... أقــداحُ صرْخَــدِها بــيْن الأخِــلَّاءِ
دارِ مــن الجِــيرَةِ الأحْيَــاءِ مُقْفَــرة ... بــيْن الجُرَيْــفِ، وآكــام الحُمَــيْرَاءِ

[1] - مسودة الجزء الخاص بكنتة من **"الأخبار"**، ص 119.

[2] - نفسه، 121.

عَـرِّجْ عَلَيْهَـا، وَسَـلْهَا أيْـنَمَا ذهبـتْ ... سُـعْدَى، وأتْرابِهـا مـن كـلِّ بيْضـاءِ
ومـا سُـؤالُكَ عـنْ سُـعْدَى ببالِيـةٍ ... مُذْ أزْمُـنٍ، طمَسَـتْها الـريحُ، صـمَّاءِ؟
إنْ تمْـسِ مُمْحِلَـةَ الأرْجـاءِ خاليـةً ... مـن آل لـيْلَى، ومـن لـيْلى، وأسْـمَاءِ
أو تُمْسِ مهْجـورةَ الأكْنَـافِ، مُذْكِيـة ... نـارَ الأسَـى بفـؤادي أيَّ إذْكـاءِ
فكمْ تَضـاحَكَ، حـوْلَ القـاطنينَ بهـا ... فِي روْضـةٍ مـن بَسُـومِ الزَّهْـرِ غنَّـاءِ
وكم تحببـت مـن سلسـالِها، فـسَرَى ... بـرْدُ الـشراب، كـما... بأعضـائي
واليومَ أرْغَبُ عـنْ ذاكَ الـشرابِ إلَى ... ... مـن ديمـةٍ بالـشرْقِ هطْـلاءِ
شـاقتْ بوارقُهـا العيْنـيْنِ لائحـةً ... حـوْلَ الخليفـةِ مِـنْ مسـقى المُلَيْسَـاءِ
هـو الخليفـةُ، لا ريْـبٌ، مُحَمَّـدُنا ... نجْـلُ الخليفـةِ مـن خـيْر البَراسـاءِ
كادتْ تميـدُ، فأرْسـاها القواعِـدَ مـنْ ... ديـنِ الإلـهِ -تعَـالى- أيَّ إرْسـاء
وأضْرمتْ فرْقةُ الغوْثِ المُغيـثِ لظَـى ... مـنْ كُـلِّ قلْـبٍ صـحيحِ الـوُدِّ فـرَّاء
فشـمَّرَ الطِّـرْفَ عـنْ جِـدٍّ وبَادَرَهـا ... كالغيْـثِ، جـاءَ بـإبْرادٍ، وإطْفـاءِ
لاذتْ بِهِ النَّاسُ، إذْ ضاقَ الخِنَاقُ كـما ... لاذت بشـاهقةٍ أبْنـاءُ عصْـماءِ
يا طِيبَ سَعْدِ بني الكُنْتِـيَّ إذْ خَفَقـتْ ... أعْـلامُ رُتْبَتِـه مـنْ غـيْرِ إخْفَـاءِ!
ويا صَـباحَةَ وجْـه الـدَّهْرِ، إذْ بَزَغَـتْ ... أقْـمارُ طلْعَتِـه في كـلِّ ظلْـماءِ!
تبـاركَ الله، كـمْ أعْليْـت مُتَّضِـعا ... إلى مَقامَـةِ عِـزٍّ منْـكَ عَلْيَـاءِ!
وأزْمَـة خَرَّبَـتْ، عظْمُـى، وَداهِيـةً ... أزَلْتَ، عن مَعْشَـرِ الإسْلامِ، شـنْعاءِ!
ومُعْضِلٍ من ذَوِي البَلْـوى ومُشْـكلةٍ ... غادرْتَهـا كبُـدُوِّ الصـبْحِ، عمْيـاءِ
ورِثْتَ ما لمْ يَـرِثْ فـيما مضـى بَـشَرٌ ... ونِلْـتَ مـا نِلْـتَ مَصْـحوبًا بـإعْلاءِ
فـما لِمَـا أنْـتَ مُعْطِيـه، ومَانِعُـه ... في الله، لله، مِـنْ مَنْـعٍ، وإعْطَـاءِ
ولا لِمَـا أنْـتَ مُدْنِيـه، ومُبْعِـدُه ... للبـابِ، أوْ عنْـه، مـن بُعْـدٍ، وإدْنَـاءِ
إنِّي إليْـكَ -فخُـذْ يـا مُنْتهـى أمـلِي- ... أشْكو، وأرْجو، منَ الرحْمن، إشْكائي

أشْـكُو بِطَانَـةَ سُـوءٍ، مَـنْ أَعِـدُّ لَهَـا ... أنتمْ، وحسْبي بكمْ مـن دفْـع أسْـوَاءِ
ولمْ أكُـنْ لأرَى، مُـذْ كنُـت، مقتَضِـيا ... مـنْ ذِي الخليقـةِ، مَـأمُولًا لحوْجـاءِ
إلا إلـيْكمْ، ومِـنْ راحـاتِ غـيْركمُ ... لا أستطيبُ- ولـوْ ظمْـآن- إسْـقائي
إني لـدانٍ، ولـو نَـاءٍ، أرَى، فعسَـى ... .
أشهْى، وأطيْبُ تسْـليم، كـمَا أرِجَـتْ ... مَباسِـمُ الـروْضِ، مَمْطـورًا بصـحْراءِ
منِّـي أسَـلِّمُ أضـعافَ السـلام.. لمـنْ ... يُنْمَـى لأطْيَـبِ أمَّـاتٍ وآبـاءِ
مُحمَّـد، خـيْرِ مـنْ حُزْنـا ببعْثتِـه ... عِـزًّا، وأصْـحَابِهِ الشُّـمِّ الأعِـزَّاءِ

ومن النماذج الشعرية المنسوبة إليه:

يـا ليلـةً، بِـتَّ في جنْـب الركيـز، إلى ... جنْـبِ الغفـارةِ، لا آوِي إلى رُفَقَـا
مُسْتَصْحِبا غيْرَ مَنْ يَرْضى مُصَـاحَبَتِي ... مُسْتَمْسِـكًا بِعُـرَى حَبْـلٍ غـدا خَلِقَـا
مَا كانَ أبْعَـدَ مَـا أهْـدى التـذكُّرُ مـنْ ... سَلْمى، بجَنْبِكَ، لِي التَّبْرِيحَ، والقلَقـا
أشْـكو لراحِلتِـي بُعْـدي، وراحِلتـي ... تشْكو إليَّ.....
حتى عددتُ لها عشْرينَ مَا اقْتَضَمَتْ ... فيهنَّ -غَيْرَ الوَجَي- عُودًا، ولا وَرَقـا
لَّـا تقـدَّمَ ثغْـرُ الصـبْحِ منْبَلِجًـا ... قـدَّمْتُ رَحْـلِيَ للعَوْجـاءِ، مُنْطَلِقَـا
هنَاكَ طـابَ لنَـا بـرْدُ الـشرابِ معًـا ... واسْتحْسَنَتْ أنْ ترَى أبصارُنا الحَـدَقا

وبعد المختار بن محْمد، وابنيه أحمد، ومحمد، وابن أخيه: أحمد بوه بن محمد بن محْمد يشكل ولد آخر لمْحمد بن الطالب اعمر بن خيري البوسيفي الكنتي جذْرَ الدائرة الشعرية الثانية بشكل مستقل.

خامســـا

شعرية أهل سيد الأمين بن مْحمد بن الطالب أعمر بن خيري

هنا يتربع رب هذا البيت الشعري البوسيفي: سيد الأمين بن مْحمد بن الطالب اعمر بن خيري المتوفي (1237هـ-1822) والد "آدبَّ" وإخوته، الذي كان قاضي جماعة أولاد بوسيف "الخضر"، حين جاءهم صَرِيخُ إخْوتهم "البِيض" في مَعركة "شَكَارْ"، فأوقفَ زعيمُ الجَماعةِ اسْتِجابتَهم للنجْدة، على فتْوَى القاضي: سيدي الأمين، التي أرادَها شِعْرِيَّةً، وشَرْعِيَّةً في الوَقْتِ نفْسه، فارْتجلَ "قافَه" الحَسَّانِي المَشْهُور:

عـــــدْنَا الْمْحَـــــاصَرْ طمْعَـــــهْ مرْحَـــــانْ لَقْلِـــــيمْ انْســـــرَمْ
يـــــوْلادْ بُوســـــيفْ الرَّتْعَـــــهْ وامْنَـــــازلْ السَّـــــاحلْ حـــــرْمْ

ثم طرحَ خيْمتَه أرْضًا، إيذانًا بالتحرُّكِ لنجْدة الإخْوَةِ المُسْتبَاحِي الحريم، وهنا يبدو لي من المحتمل جدا أن يكون شارك في القصيدة الأربعينية الفصيحة الآنفة الذكر، إذ كان أحد الفرْسان المُنتَخبين طليعةً للجيش، وقد كانَ له دوْرٌ كبيرٌ في صنْع النصر الحاسم للمَعْركة، مُقدِّما نفْسَه فِداءً للجماعة، حيث قُتِلَ -هناك- مقبلا لا مدبرا، في شعبان 1237 هـ الموافق: 30/ 04/ ، 1822م، بمنطقة "جَيْنُور" تاركا ابنه "آدبَّ" الأصغر المُسَمَّى "عبد القادر"، رابع أشقائه الأربعة:

1- أحمد بن سيدي الأمين، يذكر هارون ولد الشيخ سيدي في مسودة الجزء الخاص بكنتة من كتابه: "الأخبار"/ "المُدَوَّن"، أنه جاء في أثر أخيه عبد القادر (آدب)، إلى الشيخ سيدي، وأخذ عنه، وسمى ابنه "سيدي" الملقب بـ"الدي" ولم أجد له شعرا، ولا لابنه سيدي "الدِّيَّهْ"، الذي أخذ هذا الفرع من أهل سيد الأمين بن أحمد اسمه، لكن ميراث شاعرية دائرتي أهل محْمد، وأهل سيد الأمين بن محْمد، تركز في العالم القاضي السُّنِّي، الشاعر: محمد بن الدِّيَّهْ، أحد تلاميذ الشيخ سيدِيَّ باب المقربين.

2- الشيخ بن سيدي الأمين، كان من مريدي الشيخ سيديَّ محمد بن الشيخ سيدي المختار، مثل أخيه "ويقي"، وأبناء عمومته السابقين، وفيه يقول:

الحقُّ أبْلجُ.. نـورُه.. يَتَـــــــلَالا يــزْدادُ كــلَّ أنَّــى.. ســنًا وجَمَــالا
والشــمسُ تبْــدُو للبَصــير ولا تــرَى في مُقْلــة الأعْمــى لَهَــا إعْمَــــالا

وينسب إليه أيضا قوله في الشيخ نفسه (من الطويل):

ألا طرقتْ "ميْمُونَ"، والليْلُ جانحُ فهاجَ، اشتياقا، لم يكنْ بك، رائحُ
فأصْبَحْتَ، لا تلْوي أمَرَّتْ بوارحٌ أمامَ رِكابِ الرَّكْبِ، أم مرَّ سانح؟
فيا مَنْ لصبٍّ، مستهام فؤاده تُبَاكِرُهُ أشْوَاقُهُ، وتُبَارِحُ
فإنَّ تَصَابِي المَرْءِ، بعْدَ شَبَابِهِ جنونٌ، وفي الفوْدَيْن، للشيْبِ، لائحُ
فكيف ارْعِوَائِي، وادِّكارُ سَجِيَّتي وفي القلب، من فرْطِ الغَرام، تَبَارِحُ؟
فدَعْ -عنك- سُعْدَى، وأتِ بحر حقائق لمَوْجِ التُّقى، مِنْهُ عَلَى القوْم، طافحُ
هُدًى، وشِفًى، للنَّاسِ، نُورٌ، ورَحْمَةٌ وغيثٌ، حِمى الجاني، غنى، وهْو طامحُ

وقد نقل الأستاذ هارون بن الشيخ سيدي له قصيدة من البسيط يمدح شيخه أبا الأنوار الشيخ سيدي بن المختار ويستعطفه ويتوجع على فراقه:

يا ليت شِعْريَّ هل أَلْفَى على عَجَلٍ ... أرَتِّبُ السيْرَ من قبْلِ انْقِضا أجَلي

أطْوي الفيافي على عَيْرَانَةٍ أُجُدٍ ... تسْخُو عَلَى الأيْن بالتقْريبِ والرَّمَلِ

إلى الهُمامِ إمامِ الوقْت سَيِّدِنا ... "سِيديَّ" ملْجَئِنا في الحادثِ الجَلَلِ

جَلَّاء أصْداءِ مِرْآة الفؤاد إذا ... حِيكتْ عليْه ثيابُ الزَّيْنِ بالزَّلَلِ

مَنْ خَصَّه الله بالتقْريبِ كلَّ أنًى ... والعِلْم والجُود والإحْسان والعَمَلِ

واخْتصَّه بكمالاتٍ، يضيقُ بها ... ذرْعُ المقالةِ، بالتفْصيلِ، والجُمَلِ

أوْلاهُ مَوْلاهُ نُورا لوْ بدا لغدا ... نورُ الشموس، له، والبدر، في خَجَلِ

ورُتْبة لم تَزِلْ تعْلو بأخْمصِها ... ذُرَى الثُّرَيَّاءِ واليَافُوخِ منْ زُحَلِ

حتى أفوزَ بحظِّي من زِيارَتِه ... ومن مُجاوَرَةٍ تشْفي من العِلَلِ

وأرْتَوِي بتَحسِّي راحِ راحَتِه ... كيْ أسْتريحَ من النقْصانِ والخَلَلِ

وتنْجَلِي ظُلَمُ الأهْواءِ عنْ خَلَدِي ... والبُعْد، لا زالَ كفُّ البُعْدِ في شَلَلِ!

واعْلَمْ-وإنْ كنْتَ ذا عِلْمٍ، وذَا نَبَهٍ ... يا سَيِّدي- أنَّنَا في الضِّيقِ، والثقَلِ

وليس ذلك إلَّا منْ فِراقكمُ ... فهْو المُكدِّرُ صفْوَ العيْش، يا أمَلِي

لا يُمْسِكُ الرُّوحَ فينا بَعْدَ غيْبَتِكمْ ... إلا التَّعَلُّلُ باللُّقيا على عَجَلِ

وأن عبْدَك هذا... ثبَّطَه ... شؤم الذنوبِ، وفرْطُ العجْز والكسَلِ

فادَّارَكِ الرَّمَقَ الباقي بنا عَجِلا ... فالعُودُ ذو اليبْس لا يَخْضَرُّ بالبَلَلِ

فاللهَ نَسْأَلُ أنْ نَحْظَى بمُجْتَمَعٍ ... بالبُرْدِ-مِنْ كلِّ مَا سَرَّاءَ- مُشْتَمِلِ

وحقَّ الله آمالا نُؤمِّلُها ... فيكمْ وحقَّ ما أمَّلْتَ منْ أمَلِ

فهُوْ الذي يَهَبُ الإحْسانَ أجْمعَهُ ... للعبْدِ إنْ سَالَه، أوْ هُوَ لمْ يَسَلِ

بجاهِ خيْرِ عِبادِ الله كُلِّهم ... طه المشفع فينا خاتِمُ الرُّسُلِ

عليه، والآلِ، والأصْحابِ كُلِّهم ... أزْكى الصلاةِ معَ الإبْكار والأصُلِ

مَا حَقَّقَ اللهُ آمالا يُؤمِّلُها ... عبْدٌ-من الذنْب والتقْصيرِ- في وَجَلِ[1]

---

[1]- مسودة الجزء الخاص بكنتة من "الأخبار"، ص 108- 109.

وقد خلف الشيخ ابنته فاطمة والدة الشيخ ولد أحمد موسى الأزرقي الكنتي، الذي رويت عن أحفاده بعض أشعاره، التي ربما يكون ضمن مورثاتها نصيب من شعرية بيت أهل سيد الأمين بن مُحمد بن الطالب أعمر بن خيري، وقد تزوج خديجة بنت سيدي بن آدب، فعاد تفاعل النسب والأدب.

3- مُحمد "ويْقي" بن سيدي الأمين، (توفى فى اواسط القرن 19 بأزواد) وكان أعظم شاعر أنجبته هذه الدائرة كما وكيفا، وهو من صفوة تلاميذِ الشيْخ الكبير: سيدي المختار الكنتي، وابْنِه: الشيخ سيدي مُحمد الخليفة، إذ كان يشَكِّلُ مع الشيْخ سيديَّ الأبْيَرْي، فرَسَيْ رِهانٍ، في تلك الحضْرة، علْما وشِعْرا، وخُصوصِية لدَى مَشايخِهم هناك،[1] حتى أن الشيخ سيدي محمد ألف له كتاب "إرشاد السالك إلى أقوم المسالك"، مثلما ألف للشيخ سيدي: كتاب "جنة المريد"، كما زوجه شيخه بزينب كريمته الوحيدة[2]، ويقال إن أهله أولاد بوسيف هنا ساقوا إليه في أزواد كثيرا من الإبل مهْرا لها، ويروى أنه ذات يوم -والعهدة على الراوي- أخبر الشيخ سيد محمد أنه رأى في المنام أن الشيخ متربع على رأس شجرة عظيمة عالية، وأن التلاميذ يحاولون الطلوع إليه في القمة، ولم يستطع الوصول إليه إلا هو، فكان تأويل رؤياه في نظر الشيخ أن الشجرة الطريقة،

---

[1] - فسيد البكاي بن الشيخ سيدي محمد، يعترف بأن الشيخ سيدي هو من يقرئه، وويقي هو من يذاكر له، انظر: هارون بن الشيخ سيدي: كتاب **الأخبار** (المدون)، ج 1، تحقيق ونشر: باب بن هارون، ط 2، نواكشوط، 1999، ص143، وهو نفسه يصفهما في مستهل رسالة إليهما في الصفحة ذاتها: (إلى السيد المبجل، والأخ المفضل، ذي المجد المؤثل، والفخر المعجل والمؤجل، صاحب الأسرار: سيدي بن المختار، والأخ الأروع، والدواء الأنجع، ذي الشرف المتين المكين، والمجد الأصيل المبين: سيدي محمد بن سيدي الأمين).

وعن اشتراكهما في درجة الخصوصية، يرد الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار، على ابنه وخليفته "بادي": (الشيخ سيدي المختار الصغير)، حين سأله عمن يجوز له أن يطلع على بعض الأسرار المكتوبة لديه، قائلا: (إنما ينسخه من إخوانك التلاميذ الخاص منهم، كرفيقيك، و"سيدي" و" محمد بن سيدي الأمين" ، ومن في طبقتهم"، المصدر نفسه، ص146.

[2] - الأستاذ هارون بن الشيخ سيدي: مسودة الجزء الخاص بكنتة من **"الأخبار"**، ص 95.

وصعودها هو مدارج السالكين، وأن قمتها هي القطبانية، ولا يشتركها اثنان، فبادره تلميذه محمد "ويقي" بن سيد الأمين، إذًا أنا الذي سأموت، وبسط عليه رداءه وفارق الحياة. والذي يهمنا من هذه الرواية العجائبية، هو إيحاؤها بأن هذا العبقري المجهول لدى العموم، قد بلغ في الصوفية -حسب تأويل شيخه- أقصى ما يسعى إليه المريدون، أما مقامه الشعري فنحن نمتلك له ديوانا لَّما يزلْ مخطوطا، يعتبر خير شاهد على شاعريته الفذة، وهو -في الحقيقة- يستحق تخصيصه بكتاب مفرد يتناول جوانب شخصيته، ومكانته العلمية والسلوكية والشعرية، وما دمنا نلتزم بذلك للقارئ الكريم، فإننا هنا نكتفي بنماذج قليلة وفصوص من نصوصه. يقول في عينية من الكامل متشوقا من حضرة أشياخه بـ"أزواد"، إلى أهْلِهِ في مَنْطقَةِ "أَكَانْ" في موريتانيا، رَبْعِ عَزَّتِه وعِزَّتِه:

صَبٌّ لنَأْيِكُمُ جَفَاهُ هُجُوعُهُ ... تُحْنَى عَلَى جَمْرِ الغَرَامِ ضُلُوعُه

أَبَدًا هَوَاكُمْ فِي سَوادِ فُؤادِهِ ... يَجْرِي، فَيْجِري بالدُّمُوعِ نَجِيعُهُ

ويَدُومُ كتْمانُ الغَرامِ، ودَمْعُهُ ... مُغْرًى بمَكْتُومِ الغَرَامِ يُذِيعُهُ

يَبْكِي عَلَى زمَنٍ تَقَضَّى بالمُنى ... بَيْنَ الأحِبَّةِ عامُهُ أسْبُوعُهُ

هُوَ كُلّهُ زَمَنُ الرَّبيعِ: مَصِيفُهُ ... وخَرِيفُهُ وشتَاؤُهُ ورَبِيعُهُ

يا قَاتَلَ اللهُ النَّوَى فَهْي الَّتِي ... قد حَمَّلَتْنِي فَوْقَ ما أسْطِيعُهُ

لم يَبْقَ مِنِّي غَيْر قلْبٍ هائمٍ ... وَحَشى لَهِيبُ لَظَى الغَرام ضَجِيعُهُ

وجَوانِحٌ تَنْفَضُّ مِنْ فَرْطِ الأسَى ... وقَرِيحُ جَفْنٍ، لَا تَجِفُّ دُمُوعُهُ

نَقَضَتْ عُرى صبْري الهُمومُ، ولم يزل ... قلْبي لفرْقتكمْ مَرُوعًا رُوعُهُ

حَالَ الأسَى مَا بَيْنَهُ وسُرُورَهُ ... وانْفَلَّ عنْه من العَزَاءِ جُمُوعُهُ

مُذْ حَالَ مَا بَيْنِي وبَيْنَ أحِبَّتِي ... ورُبُوعِهِمْ مِنْ أجْرعٍ وَرُبُوعُهُ

وشِفَاءُ ما بِي من طَوِيلِ بِعادِهِمْ ... رَمَلٌ يُقَرّبُهُمْ إلَيَّ سَرِيعُهُ

يَطْوِي بَسِيطَ البِيدِ دُونَ أحِبَّتِي ... يَعْلُو فُؤَادِي بالمَدِيدِ وُلُوعُهُ

إنْ رُمْتُ سلْوَانًا أتَى مُسْتَشْفِعًا ... مِن وُدِّهِمْ مَا لَا يُرَدُّ شَفِيعُهُ

لــــوْلا التَّعَلُّـــلُ باللِّقـــاءِ لَمَوْعِـــدٍ ... مُتَحَقّـــقٍ إنْجـــازُهُ ووُقُوعُـــهُ
مِنْ شيْخِنا، الغوْثِ، المُجَدِّدِ، مَـنْ بـه ... رُشْـدِي، ومَـنْ أمْـرِي إليْـهِ جَمِيعُـهُ
لَتَمَزَّقَتْ مِنِّـي الحَشَـى، ولَضَـاقَ مِـنْ ... حُـزْنِ، عَـلَيَّ مِـنَ الفَضَـاءِ وَسِـيعُهُ
فعَسَـــى يُـــتَمِّمُ بـــالتَّلاقِي أنسَـــنَا ... رَبٌّ مُجِيـــبٌ للـــدُّعَاءِ سَـــمِيعُهُ
ويُقِـرُّ نَظْـمُ الشَّـمْلِ عَيْنَـيْ مُغْـرَمٍ ... صَـبٍّ لِنَـأْيِكُمُ جَفَـاهُ هُجُوعُـهُ"

ويقول من البسيط أيضا:

هـل لِليـالي بـنظْمِ الشَّـمْلِ إسْـعادُ ... أم هـلْ لنَـارِ الهَـوَى بـالقرْبِ إخْمَـادُ؟
أمْ هـلْ تحـلُّ رُبوعـا طـابَ مَرْبَعُهـا ... مِـنْ قبْـلُ فِيهَـا إذِ الأيـامُ أعْيَـادُ؟
أمْ هـلْ يَخِـفُّ جَـوى قلـبٍ يُقَلِّبُـه ... وَجْـدٌ لـذِكْرِ اصْـطِبَارِ الوَجْـدِ ورَّادُ؟
والـدهْرُ وَسْـنَانُ، والأفْـرَاحُ دائـرةٌ ... أقْـداحُها، ولحبْـلِ الأنْـسِ إحْصَـادُ؟
يـا مُعْمِـلًا لعِتَـاق الـيَعْملاتِ، لهـا ... في المَهْمَـهِ القَفْـرِ، بَعْـدَ الأَيْـنِ إسْـعَادُ
يطْـوي، لِطِيَّتِـهِ، فِـيحَ الفَـلَا، فلَهـا ... في كـــلِّ فيْفـــاءَ إتْهـــامٌ وإنْجـــادُ
يرْمـي الفِجَـاجَ بهـا، حتَّـى يُبَلِّغَـهُ ... منْهـا، إلَى الأهْـلِ، إرْقـالٌ، وإخْفـادُ
اقْرَأ على الأهْلِ، والأحْبابِ، من دَنفٍ ... لَوْعَاتُـــه بازْديـــادِ البُعْـــدِ تـــزْدادُ
صَبٍّ، تُصَـبُّ عَلَيْـهِ، للنَّـوَى، حُـرَقٌ ... منْهـا تَقَطُّـعُ أحْشـاءٌ، وأكْبـادُ
ويُضْـرَمُ القَلْبُ إضْرامًـا، ولـيس لـه ... إلا بـــبَرْدِ مِيـــاهِ القُـــرْبِ إبْـــرادُ
تَحِيَّـــةً بِحَيَـــا الأفْـــراحِ مـــاطِرةً ... منْهمْ جُمُوعًا عِـنِ الإلْحـادِ قـدْ حـادُوا
وبالخُلاصـةِ مـن تلـك التَّحِيـةِ للـْ ... أَفْـــرادِ مـــنْهمْ، ولِلأفْـــرادِ إفْـــرادُ
اخْصُصْ بها الوالدينَ الأكْـرَمينَ لهـمْ ... مـــن التَّحِيَّـــةِ والتـــوْقيرِ إمْـــدادُ
فهـــمْ مَنـــازِلُ للـــرُّوَّادِ مُخْصِـــبَةٌ ... وهُـــمْ مَنَاهِـــلُ للـــوُرَّادِ أعْـــدادُ
وهمْ لُيُوثُ الشَّـرَى إنْ رِيـمَ جَـانِبُهمْ ... وهـمْ هُـمُ القـادَةُ الأمْجـادُ الانْجـادُ

4- عبد القادر "آدب" بن سيدي الأمين (1820/ 1875م) : "رب البيت" الشعري

هو الشقيق الأصْغر لهذيْن الشاعريْن السابقين، سَلِيلِ هذه الدوْحة الشِّعْرية الراسخةِ الجُذور، الفيْنَانَةِ الفُرُوعِ. فقد كانت أم أبناء سيدي الأمين بن مْحمد فاطمة بنت امحمد أشنان بن بو إبراهيم، من بني حبيب الله "حَيْبَلَّه" (بتفخيم اللام وتسكين الهاء)، بن باب بوسيف، وهو جد الطالب أعمر بن خيري، البوسيفي، ويقال إن والد أمهم لقب بأشنان؛ لأنه "شوُنِنَ" بالعلم، حسب اللهجة الحسانية، وهي استعارة تعني أنه أُدِّبَّ في صغره، كما يفعل بفتيان الإبل حين تُرَوَّضُ باكرا، وقد كان أخوها أحمد بن أمحمد اشنان، خال الفتية أبناء سيدي الأمين هؤلاء، من أهل البسطة في الجسم والعلم، إذ يحكى أنه كان مرة في حي أهله، قد خلفته الحمى عن الرجال الغائبين في إحدى المهام الجماعية، فلم يرعه إلا صريخ النساء والأطفال المذعورين من فيل قد اقتحم المخيم، فتصدى له وحده، وصرعه رغم مرضه، إذ قيل إنه أمسك خرطومه حيث يتنفس، ولم يستطع الفكاك منه حتى خرَّ صريعا، وقد توفي بمقطع الحجار، حين كان قومه أولاد بوسيف الخظر" في طريقهم إلى شگار گادل 1822م، استجابة لصريخ إخوانهم: أولاد بوسيف "البيض"، المحاصرين هناك منذ أمد، وهي الحرب التي مات فيها سيد الأمين بن مْحمد نفسه زوج أخته، وأبو الفتية النجباء المتناولين أعلاه، وقد اكتشف قبره -بالصدفة- شقيقي الأكبر المرابط بن آدب، حين استوقفه -داخل غابة الحزام الشجري" الأخضر" المُسْتَنْبَت شرقي مدينة مقطع لحجار- ضريح امتداده أطول من المعتاد، ليتفاجأ باسم خال جدنا "أدب"، مكتوبا على شاهدته الرأسية، وآخر مرة رأيت ضريحه كانت سنة 2015م، إذ جئته أنا والنائب البرلماني: الأخ: عبد الرحمن بن ميني، وقد قاس مدى طول قبره؛ فوجده يناهز ثلاثة أمتار، وقد أخذنا منه صورا بهواتفنا دَرْءا للتشكيك في صدقية حجم هذا الرجل العملاق الأسطوري، لكن الشيء الأهم في السياق الذي نحن بصدده، أنه كان هو الآخر

له نصيب من الشاعرية البوسيفية الخضراء هذه، تدعم فيها مورثات الخؤولة في أبناء سيد الأمين، وربما كان -هو الآخر، مثل سيد الأمين- ساهم -قبل اشتداد وطأة المرض عليه- في نظم القصيدة الأربعينية المشتركة بين الفرسان الأربعين، الذين كانوا طليعة هذه الحملة، حسب الرواية المُؤْسْطَرَة الآنفة الذكر، وعلى كل حال تبقى هذه المقطوعة من الخفيف هي الشاهد المحفوظ مما ينسب إليه من الشعر:

ليْت شِعْري، من أيْـنَ ريَّـا الغـوَالي؟ أسَرَى في الجنُـوب؟ أم في الشـمال؟
غـالنِي الـدهْرُ بـالخُطوب، فمـنْ لي بمُعـينٍ، عـلَى صُروفِ الليـالي؟
لـيس يشـفيكَ، مـن مُصَـابكَ، إلَّا أنْ تجـوبَ الفَـلاةَ فـوْق الرِّحـالِ
قاطعًـا صـعْبَها، بكـلِّ ذَلُـولٍ وذَمُـولٍ، تجـمُّ بعْـد الكَـلَالِ
جـسْرةٍ، تسْـتخِفُّ هَـوْلَ الفَيَـافِي لائـح شخْصـها، كمثْـلِ الهِـلالِ
مـا لهَـا مَـأْرَبٌ، بغـيْرِ رُبُـوعٍ حَـوْلَ ذاتِ الظِّبـا[1]، فشَـاوٍ، فَـزَالِ
هـذه بُقْعَتـي، ومَسْـقَطُ رأسي حَبَّـذا سَـاكِنُو رُبَاهـا العَـوَالِي!
فعلـيهمْ منِّـي السـلامُ جميعـا وعـلَى الجَـار، والطُّلُـولِ البَـوَالِي

وهكذا لم تزل تفاعلات هذه السلالات الشاعرة تتكثف، حتى انتهت إلى وريثها الشرعي "آدب"، الذي كان أخوه الأكبر: مُحمد "ويقي" بن سيد الأمين، يقول لشيْخِيْهِ في الحضْرة المُخْتَارية الكنْتية بـ "أزواد"، إنَّه لا يدْرسُ العلومَ ولا التربيةَ الصُّوفيةَ، لنفْسه، بقدر ما يخدمُ بالنِّيَابةِ عن شقيقِه الأصْغر الذي بَقِيَ وحيدا يعْتنِي بعائلتهم، في الوقْتِ الذي تفرَّقَ من حوْلِه، كلُّ أقاربه -طلبًا للمَعرفةِ والعِرْفان- باتجاه أهْل الشيخ سيدي المختار في الشرْق، أو أهْل الشيخ سيدي في الغرْب فيما بعد، ويبدو أن الله اسْتجابَ لرغْبة أخِيه فيه، إذ ورِثَ -منْ لَدُنْهُ- سِرَّ أسْرتِه العِلْمِيّ والرُّوحِيّ والشِّعْريّ، فكان يتعلم الكثير بالمجهود القليل، حسب

[1]- تعريب لـ"تَوَيْمِيرَّة لْهَار، شمال مقطع لحجار.

تفسيري لما يسمونه بالعلم الوهبي، الذي مهما ساغ لنا التشكيك فيه، حسب رؤيتنا العصرية، فإنه لا يمكن أن نكابر في كون شُهْرة هذا الرجل كسفتْ إشْعاعَ أخَوَيْه وأبِيه وأعْمامه العُلَمَاء الشُّعَراء، رغم أنه قد ترَكَه أبوه، وهو أصغر أبنائه، في بيئة حرْبية، ذاتِ ظروف حيوية صعْبة، غيْر مُوَاتِية لطلَبِ العِلْم، وهذا ما يَسْتَحْضِرُهُ ابْنُه سيدي محمد "سِيدِيَّ" رِوَايَةً عنْ والِدِه، حينَ يَرُدُّ علَى أخِيهِ: "محمد لحْوار"، عنْدما اسْتَأذَنَه في الرحْلة لطلَبِ العِلْم، فقال له، في تَضاعيفِ رِسالتِه الجَوابِية، التي سماها "فتْح القهَّار في الرَّدِّ على محمد لحْوار":

«وأمَّا ما ذكرتَ من الْتزامنا الرحلة في طلْب العِلْم، خلَفا لسَلَفٍ، فلا نُطيلُ فيه، ولكن:

خـذْ مـا تـراهُ ودعْ شـيْئا سـمعْتَ بـه في طلْعَةِ البدْر ما يُغْنيـكَ عـن زُحَـلِ

إذْ قد أدركت والدَنا رضي الله عنه، فقد حدَّثَني -رضْوانُ الله عليْه- غَيْرَ ما مرَّة، وأنتَ شاهدٌ، أنَّه نَشأ فيما ينْشأ فيه مِثْلُه من أطفال أهْل الحرْب، من مُعاناةِ المَعِيشةِ وكدِّ العِيالِ، في شظَفِ العيْش وشُغْلِ البَال، مُوَافَقَةَ مَسِيرِ إخْوَتِه طَلَبَةً، فمَا زالَ كذلك حتى بَلَغَ، وهو على تلك الحالة، لم يكتسبْ عِلْمًا، ولمْ يُطالعْ...قال: بلغت مبلغ الرجال، وليس لي إلا التمسك بآية: ﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ** ﴾، واعتماد حديث :"من عَمِلَ بما عَلِمَ أوْرَثهُ الله عِلْمَ ما لمْ يعلم"، مع علو الهمة، ونفوذ العزْمة... وقال رضي الله عنه وأرضاه، وجعل نصيبنا منه أوفر نصيب وأوفاه، وذلك من صدق التوجه، مع العمل بمقتضى العلم، كائنا ما كان، كما قيل:

لكـــنَّ سِرَّ الله في صـــدْق الطلـــبْ كـمْ رِيـئ في أصْـحابه مَـن العَجَـبْ

وقال: فلما توفيت الوالدة -رحمها الله- أعملتُ الرِّحْلة إلى الشيْخ الكامل: الشيخ سيدي، ما شاء الله، فأجازني وشيَّعني إلى الأهل».

وهكذا كانت رِحْلَته القصيرة إلى حضْرَةِ الشيْخ سيدي هي رحلته الوحيدة في طلب المعرفة والعرفان، التي تكللت بإجازته عام 1265هـ، «في الأوراد القادرية، والأحزاب والتوجيهات المحمدية والمختارية، أخذا وعطاءً، وروايةً وإرْواءً، بالشرْط المَألوف، والسَّنَنِ المَعْروف خَلَفًا عن سَلَفٍ... وأجزتُه أيْضا فِيما تَحَصَّلْتْ وتتحصَّل فيه أهْليَتُه من العلوم الشرْعية؛ أصُولِها، وفرُوعِها، ومَقاصِدِها، ووسائِلِها، على نحْوِ مَا أذِنَ لِي وأجَازَنِي فيهَا شيْخُنا الخليفةُ سيدي مُحمد...».

ونظرا لأنَّ مثْلَ هذه الإجازاتِ لمْ يكنْ المَشايخُ العُلماءُ الأتْقياءُ يمْنحونَها جُزافا، كما تُمْنَحُ اليوْمَ الشَّهَادَاتُ العُليا، فقدْ أوْضَحَ الشيخُ سيديَّ المُرْتَكَزَاتِ التي أسَّسَ عليْها حُكْمَه بالأهْلِيَّةِ المُزْدَوجَةِ للمُرِيدِ المُجَازِ في المَعَارِفِ الصُّوفية، والعُلوم الشرْعِية مُطلقا: «وإنَّما أذنتُ له وأجزْتُ له؛ لِمَا لاحَ لِي فيه من لَوائحِ الصلاحِية للتقْديم، ولِمَا شمَمْتُ فيه من روائحِ الخُصوصية المُمْزُوجَةِ بالصِّدْق والتسْلِيم».

ولعلَّ إجَازَةَ الشيخ سيدي بن المختار الهيبة الأنتشائي، لعبد القادر "آدبَّ" المُشَار إليْها سابقا، في كلِّ الأوْرَادِ القادريةِ والعُلومِ الشرْعيةِ، بأصُولِها وفُرُوعِها ومَقاصِدَها، بعْدَ سِتَّةِ أشْهُر، من مَقامِه مَعَه، خيْرُ دليلٍ على ما بَلَغَه هذا الرَّجُلُ، من مَعارِفَ وَهْبِيَّةٍ، لمْ يُوجِفْ -عَلى طَلَبِها- منْ خيْلٍ، ولا رِكَابٍ، حسب روايتهم المتوارثة، وبمقتضى هذا علق ابنه سيدي على كلام أبيه السابق، موحيا لأخيه محمد لحوار بترجيح عامل الوهب على عامل الكسب، في مدرسة أهل آدب الناشئة، إذ خاطبه معقبا على خبر إجازة الشيخ له: «مع علمك -أيها الأخ- أنه لم يأخذ عنه إلا الإجازة التي بأيدينا، ولا أراها إلا فرارا مما يقع فيه المتصدر على غير مصدر، وحرصا على السند المتصل، عن السلف المتسلسل».

وكما كانت الإجازةُ مُزْدوجةً في مَضْمُونِها، كانتْ مُزْدَوجةً أيْضا في أسْلوبها، فقد شفَعَ الشيخُ سيديَّ نثْرَه بشِعْرِه، مُخاطبا في نونيته من الطويل تِلْميذَه عبد القادر "آدبَّ":

لكَ الخيرُ يُرْجَى.. والمُنَى.. والأمَانُ وفيكَ -لَمكنُونِ الخُصُوصِ- بَيَانُ
براهينُ من ناسُوتِ ذاتِكَ أنْبَأَتْ بِهَا -يَنْطَوِي فِي سَرِّهَا- ويُصَانُ
بأنَّك مَيْمُونٌ.. وسَعْدُكَ طَالِعٌ وربْحُكَ -فِي الدَّارِيْن- فيهِ ضَمَانُ
لتبشر.. وطِبْ نفْسا.. بما لَكَ.. ولْيكنْ إلى هذه الآلاءِ.. منكَ.. عِيَانُ
فإنَّ شُهودَ المَنِّ أعْظَمُ رُتْبَةٍ كَمَا نَصَّهُ أهْلُ التُّقى .. وأبانُوا

ولعلّ اخْتيارَ الشيخ سيديَّ للشعْر وسيلةً إضافيةً لتوْديع "آدبَّ"، كانَ فيه إجَازَةٌ لشاعِريَّتِهِ، التي لا نجِدُ دليلا على أنَّه أبَانَ عنْها خِلال فَتْرةِ تلْمَذَتِه عليْه، لكنَّها ربما كانت من "بَراهينِ نَاسُوتِه" التِي قرَأَ الشيْخ -ببصيرتِه الوقَّادَة- "ما يَنْطَوِي في غيْبِها ويُصَانُ".. فقد كان "آدبَّ" سليلَ الشاعِريَّةِ الكنْتيةِ عُموما، وخُلاصةَ شاعريَّةِ "أوْلاد بوسيف الخضْر" خصوصا، ومُلتَقى روافِدِ شاعِريةِ بَيْتَيْ أهل أمحمد بن الطالب أعمر بن خيري، أعمامه، وأهل سيدي الأمين بن أمحمد بن الطالب أعمر، أبيه وأخوته، وحتى شاعرية أخْواله أهل "أحمد أشَنَان"[1] البُوسيفيين أيْضا.

وهكذا نرى "آدبَّ" ربُّ "البيْتِ الشِّعْريّ"، يرتجل الشعر البديع مع صديقه: الحامد بن امينوه زعيم أولاد سيد الوافي، حين قال عند وداعه:

ما كنتُ أحْسبُ أنّ البيْنَ -يا هذا- يُقَطِّعُ القلبَ -بالتفْريقِ- أفْلاذا

فأجابه آدب، على البديهة، حسبما يبدو من السياق:

حتَّى إذا زُمَّ للتوْديع- أرْحُلكُمْ لا كانَ آخرَ عَهْدٍ، بيْننا، هذا!

ثم نجد له بيتا في الاعتزاز بمعشره، يشبه أن يكون مطلع قصيدة ماتزال ضائعة:

[1]- خاله: أحمد ولد أحمد أشنان ولد بو إبراهيم، قبره يوجد في الحزام الأخضر، شرقي مدينة مقطع لحجار، حيث مات هناك خلال مرور مدد جماعته، إلى بني عمومتهم المحاصرين في "شكار كادل"، ويوحي طول قبره المناهز لثلاثة أمتار على قوته البدنية التي تروى عنها قصص شبيهة بالأساطير.

ما في المَعاشر مَـنْ يُضـاهِي مَعْـشَري كـلَّا، ولا في الحشـرْ، يـوم المَحْـشرِ

ثم لا يلبث أنْ نراه يقرَع أجْرَاسَ الشعرية والإنْذار لنفْسه، قبْل أنْ يقْرَعها لغيْره، قائلا بروي الضاد على وزن الطويل:

ألا أيُّهـا العبْـدُ.. الكَسِـيرُ.. المَهِـيضُ أَلمْ يَـانِ -بعْد الشيْبِ- منْكَ.. نُهُوضُ؟!
أَلمْ يَـانِ أنْ تسْـلُو.. ولِلـنَّفْسِ-بعْـدَما طغتْ، جَهْدَها، واستخْدَمَتْكَ-تَرُوضُ؟!
وتأخُذَ -منك- الجَهْدَ.. دَأبًا.. مُشَمِّرًا ومَالكَ -في ليْلِ التَّمَـامِ- غُمُـوضُ!
رَأيْتُـكَ لم تَسْـتَحْي بِيضًـا، تلامَعَـتْ برَأْسِكَ.. أنْ يَقْـتَـادَ قَلْبَكَ بيضُ!
فَهَيِّـئْ.. دَواءً.. حمْيَـةً.. وعَقـائدًا تَنَـالُ -بِها- بُرْءًا.. فأنْتَ مَرِيضُ!
فبَادِرْ ولا تشغَلْكَ "سوْفَ" و"عَلَّـمَا" ولا يُلْهِكَ الطَّرْفُ.. الكَحِيلُ.. الغَضِيضُ!

ثم يختم بتوسله المتلاحق الصرخات في استغاثاته بلامية من الكامل:

يا غوْثُ.. يا أقطابُ.. يـا أوْتـادُ.. يـا أخْيـارُ.. يـا نُجبـاءُ.. يـا أهْـل العـلا
ولَّى شـبابُ مُحِـبِّكمْ، في لهْـوه ومشـيبه -يـا سـادتي- قـد أقـبلا
مِـنْ بعْـدما مَـنَّ الإلـهُ بِحُـبِّكمْ وعـليّ بالفضـل الجزيـل تفضـلا
نـاديتكم، متملقـا، متشـوقا فعسـى تجيبـوا مُـذْنِبا، مُتَبَـتِّلَا
يشـكو القسـاوة، والـبلادة، والجفـا وبكـمْ إلى المـوْلى أتـى مُتوسِّـلا
هُبُّـوا لمـا قـد نابَـهُ، لا تتركـوا مسـكينكم، فهـو المصـابُ، المُبَـتلَى

فبَعْد هذا كلِّه لا غرَابَة أنْ يكونَ "آدبَّ" عَمُودَ بيْتِ الشِّعْرِ" الأعْرَق في هذه السُّلَالَة الكنتية، دون مُنازِع، وأنْ يُورثَ أبناءَه وأحْفادَه -حتى الآن- سِرَّ القوافي، لدرجةِ أنَّه كان "يُحَنِّكُ" أبناءَه بالشعْر، بدَلَ التمْر واللبَنِ المَألوفيْن عند الآخرين. فقد كان كُلَّما وُلِدَ له ابْنٌ يصْدَعُ في أُذْنِه اليُمْنَى بتكبيراتِ الأذَانِ وتَعاويذِ القُرْآنِ، ويُدَنْدِنُ في أُذْنِه اليُسْرَى أبياتا شِعْريَّةً يرْتجِلُها في حقِّ ذلك الوَلِيد، لتنْدَسَّ نفحاتُ الإيمان وإيقاعات الأوْزان، مع أوَّلِ قَطرات لِبَانِ الأمِّ، السعيدة بنت الأمين الجيد،

سليلة بيت العلم والقضاء، في أولاد بوسيف الخضر، وكانت تملك مكتبة خاصة بها تقدر بحمل بعير، تركتها لأبنائها، وبقيت بيد الشيخ أحمد بن آدب الذي كان يختصها بالعناية والصيانة، في الإقامة والترحل، كما أنها كانت شاعرة أيضا رفدت -من جهة الأمومة- مورثات الشعر المكثفة لدى أبناء آدب، المنحدرة إليهم من دائرتي آبائهم: آل سيد الأمين وأجدادهم: آل مُحمد بن الطالب اعمر بن خيري، فقد احتفظت لها الذاكرة بقولها مرتجزة بالتضرع لله:

يـــا ربَّنـــا، بالمُصَـــطَفى، والخُلَفَـــا ارْزقْ لَنَـــا رِزْقًـــا يَقِينَـــا التَّلَفَـــا
فإنَّنـــــا مَسَـــــاكِنٌ، وَضُـــــعَفَا الطـــفْ بنـــا وأنْـــتَ خـــيْرُ اللُّطَفـــا
فإنَّنـــا -مـــنَ الخَطَـــا- عـــلى شَـــفَى ارْأفْ بنَـــا وَأنْـــتَ خـــيْرُ الرُّؤَفَـــا

وقد كانت السعيدة، قبل زواج آدب بها، أم أهل أحمد انبسيف؛ بيت العلم والورع والشعر، من أولاد بوسيف البيض، الذي تقدم ذكر تسلسل الشعر فيهم أربعة أجيال، محمد، وابنه محمد، وحفيده الجيلي، وابنه محمد، فبيت الشاعرية البوسيفية البيضاء يلتقي -في أبناء آدب- بروافد الشاعرية الخضراء، بجميع دوائرها السابقة، حتى "أينات" بنت أحمد انبسيف – أخت أبناء آدب لأم- كانت أيضا شاعرة تدرك مؤثرات العراقة في نجابتها، حيث تفتخر -كما تقدم- قائلة:

إنِّي فتـــاةٌ عُـــروقُ الفَهْـــمِ جـــاذبتي يكـــادُ ذهْنـــيَ- دون النَّحْـــوِ يَكْفِينـــي

كما نجدها أيضا تدندن الرجز على إيقاع أدعية والدتها السعيدة الآنفة الذكر:

يَـــــا رَبَّنَـــــا، يَـــــا ذَا العَطَـــــاءِ، وَالمِـــــنَنْ
ارزقْ لنـــــا زرْعًـــــا كثـــــيرا ولَـــــبَنْ،

وهكذا عِنْدَما رُزِقَ عبد القادر(آدب) بابْنَه البِكْرَ(سيدي محمد)، لقَّبَه "سِيدِيَّ" تَيَـمُّنًا باسْم الشيخ سِيدِيَّ، ورغم أننا لمْ نعْثرْ على الشعْر الذي اسْتقبله به، فقد كان شاعرَ كنْتة الغرْبيين بإجْمَاع.

ثم وُلِدَ له "محمد" الذي لقبه بـ"الحوَار" استلهاما لما يُسَمَّى في الثقافة الشعبية بـ "حوار الجنة"، فخاطبه أيضا:

إن الحـــــوارَ محمَّـــــدًا سيَسُـــــودُ ولقوْمِـــــه وعشـــــيرِه ســـــيَقُودُ

ثم رُزِقَ بابْنه "الشيخ أحمد" فتنبَّأَ لهُ شعْريا، بما سَيَكونُ له من زَعَامَةٍ سَيَاسِيَّةٍ، ومشْيَخة روحية، ومَكانة علْمِية وشعْرية، وكأنَّ "آدَبَّ" يُقَلِّدُ شيْخَه الشيْخ سيدِيَّ، فِي قِرَاءَتِه لِمَا ينْطوِي ويُصَانُ فِي غيْبِ النَّاسُوتِ؛ فيقول:

إليكَ تُضـرَبُ أكْبَـادُ العَطامِـــــيسِ يَـا شـيْخُ أحْمَـد نِـبْرَاسُ النَّبَـاريسِ
تَسْـعَى إليْـكَ رُوَّادُ الحَـاجِ مِـنْ بُعُـدٍ فَيُفْلِحُـــونَ.. بتخْويـلٍ.. وتقْـدِيسِ

كما أنَّ الوالدَ، أكَّدَ أيْضا مَا سَيَؤولُ إليْه ابْنُه هذا منَ الكرَم، وكلِّ الفَضائِلِ الأخْرَى:

الشيخ أحمـدُ.. فخْـرٌ.. حـين يُفْتَخَـرُ مـــا إنْ يُشـــابِهُه بحْـــرٌ.. ولا مَطـــرُ
بجُودِ يُمْنَـاهُ.. جـادَ البـاخِلُونَ.. كـما - مِنْ راحتَيْهِ- بُحُـورُ العِلْـمِ تَنْفَجِـرُ
معلِّمٌ.. عـــــــالِمٌ.. علَّامَـةٌ.. عَلَـمٌ قد فـــاقَنا.. وكـذا مَـنْ قبْلَنـا غَـبَرُوا

سادســـا

شاعرية أبناء آدب
خلاصة السر الباقي

1- سيد محمد(سيدي) ولد آدب (1855 ـ 1895م)

هو الابن البكر لآدب، من أمه السعيدة بنت المين الجيد سليلة بيت العلم والقضاء في أولاد بوسيف الخضر، وعِنْدَما رُزِقَ به لقَّبَه "سِيدِيَّ" تَيَمُّنًا باسْم شيخه الشيخ سِيدِيَّ، ورغم أننا لمْ نعْثرْ على الشعْر الذي اسْتقبله به، مثلما درج عليه مع أخويه الآتي ذكرهما، فقد كان -كما تقدم- شاعرَ كنْتة الغرْبيين بإجْمَاع، وقلَمَ "البَيان والتبْيين" لدَى جَماعتِه، ولِسَانها الناطِقَ باسْمها، وكان فارسًا ذا نفس ملحمي طاغ، ملثما كان عالما، وقاضيا، ومُفْتِياً، وشيخا مربيا، رغم أنه لم يعمر طويلا، حيث لم يكد يبلغ الأربعين سنة، حتى توفي في بداية القرن 14هـ؛ حسب إحدى رسائله المؤرخة في سنة 1302هـ، هذا أيضا رغم أنه قلد والده وشيخه الوحيد: آدب في الاعتقاد بجدوائية العلم اللدني/الوهْبي، أكثر من العلم الكسْبي، متبعا إياه في عدم الرحلة الخارجية للدراسة، والاكتفاء الذاتي بقاعدتي: الآية الكريمة: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ ، والأثر «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أوْرَثَهُ اللهُ عِلمَ مَالَمْ يَعْلَمْ»، إضافة إلى رضى والديه، ففي إطار رده على أخيه محمد لحوار، الراغب في الرحلة طلبا للعلم، يحاول ثنيه عن ذلك بضرب المثل له بوالدهم آدب، حسب ما تقدم، ثم بتقديم نفسه له مثلا آخر، يمكن أن يعتدَّ به، فيقول: «أما أنا فليس الخبرُ كالعيان، وليس الصادق كمن حدَّثَ ببُهْتان، فقد شاهدتَ مَواردَ أمْري ومَصادِره، وذلك أنِّي نشأتُ زمَن الصبوة راغبا في التغرُّب، والابتعاد

في التطلُّب، فجعل والدُنا رضي الله عنه يسوسني بسياسة عجيبة، ويَعِدُنِي بالمُساعدة على ذلك، وينشرُ لي أحْوالَ طلبة العلم في جميع المسالك، مع اطِّرَاحِي بين يديه،.... والعمل بمقتضى ما يشير به ويقضيه، حتى أطلعني الله من فضله عليه، وقصرت همتي على الشوق إلى ما لديه من علم، فوصلت إلى ما إليه من فضل الله وصلت، مما لا أنْكرُه امْتثالا لأمْر الله،...ولا أذكره بين يدي من قلد هواه وتولاه، "فظُنَّ خيْرًا ولا تسْألْ عن الخَبَرِ"[1] ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾[2]، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[3]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[4]، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[5]. وقد ختم رسالته بمزيد من حمد الله على ما أولاه.

وخلاصة ما تبقى من آثار هذا العالم الموهوب، يتجسد في مجموعة شعرية فصيحة، وأخرى شعبية/ حسانية، إضافة إلى رسالة بعنوان: "فتح القهار في الرد على محمد الحوار"، تقع في حوالي عشر صفحات من الحجم الكبير، وجهها إلى أخيه المذكور، حين استشاره في شأن الرحلة طلبا للعلم، في بعض "محاظر" البلاد، كما أن له رسالة أخرى، ما تزال مفقودة، سماها أيضا: "فتح الجليل في الرد على الدجاجيل"، هذا إضافة إلى فتوى مطولة بعنوان: "الدر المنظوم في نثر عقد المومنة بنت الزهيو لخطري ولد المعلوم"، وله أيضا رسائل أخرى، وفتاوى فقهية، وأحكام قضائية متعددة، تدل كلها على مكانته المركزية علميا واجتماعيا، بين زعماء قومه وعلمائهم وفرسانهم وكتابهم وأدبائهم، غير أن ما يعنينا في هذا السياق، هو نصيبه من الميراث الشعري، فقد اسْتنْقذْنا من يد الضياع قصائدَ له، واحدة منها تخميس لأبيات توسلية لوالده آدب، جسدت أعلى درجات تعانق شاعرية الأب والابن في منزعهما الروحي الديني.

---

[1] – نصف بيت لابن المعتز.

[2] – **قرآن كريم**، سورة يونس، الآية :58.

[3] – **قرآن كريم**، سورة الأحزاب، الآية : 62.

[4] – **قرآن كريم**، سورة فاطر، الآية : 43.

[5] – **قرآن كريم**، سورة النحل، الآية : 18.

وهناك قصيدة ثانية قالها في زيارة ضريح جد القبيلة الأعلى بجبل "فصْك" في ولاية إنشيري حاليا: سيد محمد الكنتي الكبير، حنينا للجذور، و"تأصيلا للكيان"، يقول فيها:

أنختُ ركابا.. طلَّحَتْها الصحاصِحُ ... فصارَتْ حَنَايَا.. كالقِسِيِّ طلائحُ
سَوَاهِمَ.. هزْلى.. دَأْبُها السيْرُ دِيمةً ... تَقَرِّبُ مِ الطَّيَّاتِ مَا هُوَ نازحُ
لدَى المَلْجَأ المَعْهُودِ لِلَّاجِئِ الذِي ... تُقَلِّبُهُ.. بيْنَ الأنامِ.. التبَارحُ
لدَى السَّيِّد الكُنْتِيِّ؛ أعْنِي مُحَمَّدًا ... فذاكَ الذِي تُلْقَى لدَيْهِ المَدائحُ

وهنا قصيدتان أيضا سجلتا رحلته لمنبع مرجعيته الروحية الصوفية حضرة أهل الشيخ سيد المختار الكنتي، في إقليم أزواد بجمهورية مالي حاليا، إحداهما سمَّاها -أو سميت-: "الأنوارية"، نسبة لـ"بَلَنْوَار" موقع الحضرة، وربما عنى بـ "أبي الأنوار" الشيخ نفسه، لأن إشعاعه العلمي والروحي والفكري طبَّقَ الآفاق، يستهلها بقوله من البسيط:

زارتْكَ.. وصْلا.. بُعَيْدَ الهجْر أسْحارا ... أسْمَاءُ.. أهْلا بها من زائرٍ زارا
أهْلا بها.. كيف جابتْ -وهْيَ في شحَطٍ ... ليْلا.. إلى نحْونا- فِيفًا.. وأوْعارا
وكانَ عهْدي بها، والمَشْيُ يُبْهِظُها ... بيْنَ الفَساطِيط، بلْ لا تَطْرُق الجارا
هيَ التي غادرتْ -بالشَّجْوِ في خَلَدِي ... لَمَّا نأتْ -لوْعَةً- تُذْكِي به النارا
وصرْتُ -من بعْدِها- حيْرانَ، ذا جَزَعٍ ... حُزْنًا، وكنتُ -لدَى الهيْجاءِ- صبَّارا
ما كانَ أعْذَبَ أيَّامِ الوِصَالِ لنا ... وكمْ لنا كانَ وجْهُ الدَّهْرِ نضَّارا!
أجْنِي ثِمَارَ الهوَى، أيَّامَ أقْطِفُ مِنْ ... روْض الأماني -رَضِيَّ البال- أزهارا
أسْمَاءُ.. لا تحْسبِي أنِّي هَجَرْتُكِ.. لا ... مَا كنْتُ -أسْمَا -كما تدْرينَ- غدّارا
ما القلبُ عنكمْ سَلا.. لكنْ تَأَنَّسَ. أنْ ... آنستُ- من نحو ذي الأنوار- أنوارا
حيثُ المُتَيَّمُ يسْلو هَمَّهُ طرَبا ... وحيث يَنْسَى الغريبُ الأهْلَ.. والدارا
وحيثُ كلُّ امْرِئٍ يَحْظَى ببُغْيَتِه ... ويَكْتَسِي مِن ذُيولِ النُّورِ.....
وَحَيْثُ صِيدَتْ أوَابِدُ العُلُوم، وقدْ ... رُدَّتْ شوَاهِدُها؛ آيًا، وآثارا

ونالَهَـا -ثـمَّ- مـن يبْغِـي نفائسَـها ... وأَعْطِيـتْ حقَّهـا، درْسًـا، وأذْكـارا
وحيـثُ تنْقلِـبُ الأنْهـارُ أبْحِـرَةً ... وتسـتحيلُ البُحـورُ الضُّـخْمُ أنهـارا
وحيـثُ خـيْرُ الـورَى تمَّـتْ وِرَاثَتُـه ... وحفْـظُ سِـيرتِه فـيما بـه سـارا
وحيثُ يُنْقَى مَعِينُ القدْس من طـرَقٍ ... منَ الصَّدَا، والطَّخَـا، رَيْنـا، وأكْـدارا
وحيـثُ أدْبـرَ جـيشُ البُطْـلِ مُنْهَزِمًـا ... مِنْ حيث أقبـلَ جـيْشُ الحـقِّ جَـرَّارا
وحيـثُ أسْـلـمَ ذو الإغْـواءِ مُعْتَقِـدًا ... مِنْ بعْدما كـانَ -بالإسْـلامِ- مَكَّـارا
وحيثُ لا تنْقـضِي حيث المَكـارم لـوْ ... أفْنَيْـتَ عُمْـرَكَ.. واسْـتعرْتَ أعْـمارا

أما القصيدة الثانية فقد تبادلها -حسب روايتنا- مع الشيخ سيد أعمر بن الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي والد العالم الشيخ باي، صاحب النوازل المعروفة، حين هم بتوديعهم، والعودة لأهله ووطنه، فبادره مضيفه، يسْتبْقيه عندهم فترة أطول بقصيدة منها:

"سِيدِيَّ"، إنْ لمْ تُقِمْ طولَ الزمان بنـا ... فامكثْ.. هُنَا عِنْدَنا.. عَـامَيْنِ.. أو عامـا
أو نصْفَ عامٍ.. ولا نرْضَى بسـيْرِكَ ذا ... مـا لمْ تَعِـدْنَا.. بُعَيْـدَ السَّـيرِ.. إلْمامـا
فـإنَّكمْ صـفوةٌ، دون الأنـام.. لنـا ... وإخـوةٌ.. ويـدٌ.. نقْضـا.. وإبْرامـا
وجـيرةٌ.. وعشـيرٌ.. لا نُبَدِّلُـه ... ما سامَنا.. قَطُّ.. في اللَّأْواء.. إسْـلاما

فأجابه سيديا ولد آدب محتفظا بوزن البسيط وروي الميم:

قلبي... لذكْر أحبَّاءٍ.. نـأوْا.. هامَـا ... بلْ كدْتُ.. مِنْ غيْرها.. لا أعْرفُ السَّاما
أحِبَّة.. منذ بانوا.. بنتُ عـن جَلَـدِي ... بل بنت.. عن جسدي.. شوقا.. وتهياما
لما نأوا.. أضرموا.. في أضْـلعيَّ.. وفي ... قلبي.. وقُودَ سَعير الشوْق.. إضْراما
بل مـا سـلوتكمُ.. في نعمـة.. ولقـد ... يسلي-الأحبة- طيبُ العيْش أقواما
إذ لا نعيم.. كـآل الشـيخ سـيدنا الـ ... ـمختار.. من أوْضَحَ الإبْهامَ إلْهاما
أزْكـي البَرِيَّـةِ أعْراقًـا.. وَأعْـدَلِهِمْ ... قَسْما.. وأفْضَلِ مَنْ صلَّى، وَمَنْ صاما
بـلى، وأجـودهمْ كفًّـا، وأقْـدَمِهِمْ ... في الحرْب.. والسِّلْم.. أسيافا.. وأقلاما

وهناك قصيدة أخرى له من الطويل تسمى:"التربية" لأنها كانت بمثابة "جُنَّةِ المُريد دون المَرِيد"، ووجهها إلى أخيه الشيخ أحمد بن آدب، ليكفكف من جموح الشباب لديه، ويجعله ينسجم في "مَدَرِاج السالكين"، إذ كان الشيخ أحمد يخاطب أخاه الأكبر وشيخه "سيدي"-بعد مراجعات سابقة بينهما- معلنا تماديه في مسار هواه:

يَعُودُ السلامُ، الحافِلُ، الأوْفَرُ، الأسْنى ... إلَى سَيِّـدِي "سِيدِيَّ" "وَالِـدِيَ الأحْنى
ثِمالَ اليَتَـامَى.. فهْوَ بَهْجَةُ عصْـــرِه ... وطـلَّاعُ تلِّ المَجْدِ.. وهْوَ له مَغْـنَى
وشَافِي مُرُيـدٍ.. مِنْ مَـرِيـــد.. بنظْرة ... ومَرْمَى عِصِيِّ السيْر الأقْصَى أوِ الأدْنَى
بَأَنِّي لمْ أرْدُدْ.. لِنَفْسِيَ.. عنْ هـــوًى ... ولمْ -سَيِّـدِي- يَرْدُدْ لَهَـا رَبُّها الأعْنَى
وأنتمْ.. إذا تاقَـتْ تَرُومُونَ ردَّهَـــا ... وقوْلُكُمُ هَذَا..كـ"الأعْـوَرِ قدْ جُنَّا"![1]

وقد كانت قصيدة سيدي هي الوصفة الشافية، التي فعلتْ فعْلَها الخَارِق، فِي نفْسِيةِ الشيخ أحمد، وفِي سُلوكِه، إذ قال فيها معتمدا على فخامة بحر الطويل:

عَتَبْتُكَ.. فاهْنأ.. لا عِتَـابَ.. ألا فاهْـنا ... ومأْتاكَ -أيًّا كانَ- عنْـدي هـو الأهْـنَا
أُحِبُّ الـــــذِي أحْبَبْتَ.. غَيْرَ مُحَرَّمٍ ... وأبغضُ ما أبْغضتَ بالحِسِّ، والمَعْنَـى
وأبذلُ.. مَـــالِي.. في رضاكَ.. وكلَّما ... حَمَيْتكَ.. لمْ أمْنَعْهُ حِرْصًا.. ولا ضَـنَّا
ولكن.. لأمْرٍ.. لمْ أُكَلَّفْ.. بنـــشْـرِه ... مَغَبَّـــتُه محْمُـــودَةٌ.. لَـنِ اسْـتَأْنَى

[1]- لقد استحضر هنا قصة رجل من تميم كان أسيرا عند قوم، فسمعهم يتحدثون عن عزمهم على غزو قومه، فطلب منهم السماح له بإرسال رسالة إلى أهله، فاشترطوا لذلك أن يسمعوا الرسالة، حتى يتأكدوا من خلو محتواها من أي إنذار، فكان من ضمن وصاياه لهم:
"... وأن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها ويركبوا جملي الأصهب... فلما وقفوا على الكلام.. قالوا جن الأعور بعدنا إذ لم نعرف له ناقة ولا جملا".... ثم دعوا أحد حكمائهم "فلما قصوا عليه القول قال أنذركم... والناقة الحمراء الدهناء، والجمل الأصهب الصمان، يقول اعدلوا عن السهل إلى الجبل...".
أنظر: داود بن عمر الأنطاكي: **تزيين الأسواق في أخبار العشاق**، ص 191.

وما خِلْتُ تصْرِيــفي لأمْـرٍ.. مُخَالِفًـا ... هوَاكَ.. كمَا عنْدِي هَوَاكَ مُنًى حُسْـنَى
وحَاشَى.. ويَأْبَى اللهُ.. تقليدَكَ الهَوَى ... وطَوْعَكَ قِتْلا.. مُفْسِدًا.. قبل أنْ يُثْنَى
فرُضْها، وذُدْها عنْ هواهـا.. وزَكِّهـا ... ولا تُعْطِها نَيْلًا.. تَنَلْ مَـــا به تُعْنَـى!
لأنَّ بظَلْفِ النفْسِ.. عن شهواتِـــها ... يَنالُ الفَتى.. المأمُولَ -فِي الله- والأَمنا
ولا عِـزَّ.. إلا بَعْـــدَ إِذْلَالَ مُهْجَـــةٍ ... ولا رَاحَةٌ -دُونَ العَنَا- ثَمْرُهاَ.. يُجْـنَى
فتلْكَ سَبـيلُ الحق.. قامـتْ بقوْمِهـا ... ومَنْ لمْ يُقِـمْها.. لا يُقِـــيمُ لَـهُ وزْنـا
وما حـــازَ قَصْبَ السَّبْقِ إلا مُشَـمِّرٌ ... قدَ آثرَ.. ما يبْـــقَى.. على كل ما يَفْنَى
وأَلْقَى حُظوظَ الـنَّفسِ، ظِهْرِيـةً.. ولمْ ... يعرِّجْ على كـأسٍ.. سقتْه.. له.. وهْنا
وضـمَّرَ طِـرْفَ العـزْم، لمْ يـثْنِ طَرْفَـه ... إلَى غيْرِ مَطْلُوبٍ.. أمَامَ.. لَهَا اسْـتدْنى
وجَدّ سَبيلَ القَوْمِ.. لمْ يـأْلُ.. قاطِعـا ... صَحَاصِحَها، والمَهْمهَ القَفـرَ.. والـدَّهْنا
تلاشَـى.. لدَيْهِ الكوْنُ.. ينْحُو مكوِّنـا ... فقدْ هَجَرَ الأفْراحَ، واسْتَصْحَبَ الحـزْنا
ولمْ يتَّخِـذْ -غـيْرَ المُهَـيْمِنِ- صـاحِبًا ... ولا دُونَ ما يخْشَى -سِوَى ذِكْرِهِ- حِصنا
هنالكَ.. يَحْـظَى.. بالـذي هُـوَ آمِـلٌ ... ويَصْحَبُه التَّيْسِـيرُ.. فِـــيمَا لـه عنَّـا
وتصْحَبُه -منْـهُ- العِنَـــايَةُ.. كائِنـا ... له -في المَرَامِ- العيْنَ.. واليَدَ.. والأُذْنا
وتُطْوَى لـه قُصْـوَى المَفَـاوِزِ.. مُلْقِيًـا ... عَصَا سَيْـرِهِ.. قد بُوِّئَ المَقْعَدَ الأَسْـنَى
على نحْوِ هذا، فانْحُ، إنْ كنْـتَ ناحِيًـا ... ولا تَرَ شأْنًا.. غيْرَ مَـا شَأْنُـــهُ شـأْنا
لتبلغَ أقْصَـى مـــا تُريـدُ.. وتقْتَفـي ... ورَاثَةَ مَنْ أغْـنَى مُحِبَّيهِ.. مَنْ أقْـــنى
عليْـه صَـلَاتِي.. مَحْـوَ ذنْـبٍ.. بتوْبَـةٍ ... ومَـا زهْزَهَـتْ أرْوَاحُ شَـامِيةٍ غُصْـنَا

إن الذهنية الكنتية العامة التي يتماهى فيها "التكنتي، والتَفَتِّي (الفُتُوَّة)، تُعْتَبَرُ ذات بنية مركبة، بحيث كان يتعايشُ تحْت جِلْدِ كلِّ واحدٍ من أعلام القوم.. عالمٌ، وناسكٌ، وشاعرٌ، وفارسٌ، وعاشقٌ.. ولعلَّ خيْرَ مِثالٍ على ترْكِيبَة "كِيمياء الشخْصيةِ الكنْتية العجيبة" هذه، هو "سِيدِيَّ بن آدبَّ"، شاعر "كنتة الغربيين" بدون منازع، وخصوصا في رائيته المشْهُورَة المنظومة على الطويل، التي قالها بعيد

سنة 1882م، وكانَ بعْضُ رُمُوزِ كنْتَة يَعْتَبرُونها نشيدَ الجَماعة الذي يُمَثِّلُ صميمَ هُوِيتها المُرَكَّبة، ويُلْزِمُونَ المُتألِّقينَ من شبابهم بحِفْظِها وتَمَثُّلِها لاكْتمالِ فُتُوَّتِهم[1]، فرغم سَطْوَةِ الجَمَالِ والحُبِّ في نفْسية الشاعِرِ العاشقِ، تبْقي لرُوحِ الفَارِسِ خُطوطٌ حمْراء... تبْدأ عنْد حُدود قَدَاسَة الشرَف والكرامة، وعلى ضوْء هذه الفلْسفة والرُّؤْية كانت المُقدّمَة الغزَلية مَدْخَلا مُوَفَّقا إلى الفخْر، والانتقالِ من الحُبِّ إلى الحرْب:

ألا طرقتْ -كاليُسْر- من بعْدِمَا عسرٍ ... بمَسْرَى يُسَرِّي الهمَّ إمَّا لنَا تسْري
أمَامَةُ.. عنْ وصْلٍ.. لنا.. بعْد هجْرِنا ... فأهْلًا.. بهَا.. منْ واصِلٍ.. بعْدمَا هَجَرِ
مُخَبَّأةٌ.. تسْبِي الحلِيمَ.. بمَنْطِقٍ ... هُوَ السِّحْرُ، لا السّحْرُ المُؤدِّي، إلى الكُفْرِ
مُعَطَّرَة.. يُزْرِي- علَى المِسْكِ- طِيبُها ... وبالبَدْرِ.. تُزْرِي.. نصْف رابِعَةِ العَشْرِ
بَعِيدةُ مَهْوَى القُرْطِ.. عجْزَاءُ.. خدْلَةٌ ... مُهَفْهَفَةٌ.. بيْضَاءُ.. برَّاقةُ الثَّغْرِ
وكنتُ على الآزَامِ.. مِنْ قبْلِ هجْرِها ... صبُورا؛ فَأفْنَى هجْرُها ساحتيْ صبري
فلمَّا.. رَأَيْتُ الهجْرَ -لا شَكَّ- قَاتِلِي ... علَى أنَّه -لِي دائمًا- بالهَوَى يُغْرِي
تَمَنَّيتُ.. لوْ -في الهَجْر- تَذْكُرُنِي.. ولوْ ... بِهُجْرٍ.. وَمَنْ لِي -مِنْ أُمَامَةَ- بالهُجْرِ
أرَاهَا.. تُرِينِي المَوْتَ.. عَمْدا وإنها ... لَتَقْصُدُنِي-بالقتْل- تِيهًا، وما تدرِي
أَقَاتِلَتِي.. عمْدًا.. أُمَامَةُ.. بَاطِلا ... جِهَارًا.. كأنِّي لسْتُ.. بالصَّاحِبِ البرِ؟
فقلْتُ لها: مهْلًا.. أُمَامَةُ، قَصِّرِي ... عنِ الفَتْكِ بي.. فِعلَ السَّفاهَةِ.. وَالخُسْرِ
وإلَّا فَإنِّي مِنْ مَعَاشِرَ.. دأْبُهمْ ... -إذَا وُتِرُوا- التَّشْمِيرُ.. والأخْذُ بالثَّأْرِ
نَرَى الظفْرَ.. بالأعْدَاءِ.. نذْرًا.. وإنَّنَا ... -إذَا مَا نذَرْنا الأمْرَ- مُوفُونَ بالنذْرِ
ونحْنُ بنُو الكنْتيّ -لا فخْرَ- خيْرُ مَنْ ... -وَحَقِّ إلهِ العرْش- يمْشِي عَلَى العَفْرِ

[1] – كانت هذه القصيدة من عناصر الفتوة، مثلما كان ابن حزم الأندلسي يقول: "من تختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، وحفظ قصيدة ابن زريق، فقد استكمل الظرف". انظر: صلاح الدين الصفدي: **الوافي بالوفيات**، تح: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م.

كَـرَامٌ.. نَمَتْـنَا - من مَعَدٍّ- سَرَاتُهـمْ إلى أنْ توَسَّـطْـنا الـذَّوَائِبَ مِـنْ فِهْـرِ
عَزُيزُونَ.. أحْسَابًا.. ودِيـنًا.. لِعِزِّنَـا تَذِلُّ نُخَـا أهْـلِ الـتَّخَمُّطِ، والكـبْرِ
لنا الناسُّ.. مُلِّكْنَـاهُمُ منْ مَلِيكِهِمْ ونَحْنُ لـهُ طوْع الأوَامِـرِ، والزَّجْرِ
إذا مَا أرَدْنَـا سَيِّدًا.. سَـادَ سِرْبَـه ولوْ لمْ يَكُنْ مِنْ قَـبْـلِهَا ذِكْرُه يجْـرِي

ثم يُعَرِّجُ على الفخْر بازْدِوَاجِيتِهم، في امْتِلاكِ قُوَّتي: "الكِتَابِ والرِّكَابِ":

ونحْنُ بُحُـورُ العِلْمِ.. قدْما.. وكلَّنـا لدَى الحرْبِ كاللَيْـثِ الهزَبْـرِ أبِي الأجْـرِ
لنا شَـاهِدٌ -فِيمَا ادَّعَيْـنا- مُصَـدّقٌ غَدَاةَ الْتَـقَـيْنَا -وَالأَعَـادِيّ- بالغـمْرِ
غَـدَاةَ زحَفْنـا، في خَمـيسٍ، عَرَمْـرَمٍ إليْهِمْ.. جِـرَاءً.. عنْـد مُنْصَـدعِ الفجْـرِ
بجُرْدٍ، عَنَاجِـيجٍ، يَعَابِيـبَ، شُـزَّبٍ عَلَى زُمَرِ الأعْـدَاءِ.. مُعْتَـادَةِ الظَّـفْـرِ
عليْهَا كُمَاةٌ، مـن بَنِـي سَـامَ، عَـوَّدُوا جَـوَامِحَـها الكَـرَّ، المُـؤَذِّنَ بـالظفْرِ
جَحَاجِحُ بُسْلٌ كالأُسُودِ لدَى الـوَغَى وُجُوهُهُمُ -في الأزْلِ- كالأنْجُمِ الزُّهـرِ
بأيْـديهِمُ.. أُولَى المَـدَافِعِ.. مُخْرِجًـا بِمَا قدْ حَوَتْ أسْخَى من البحْـر والقَطْـرِ
إذا سَـدَّدُوها.. فِي نُحُـورِ عـدَوِّهِمْ أصابَتْ، فَلَمْ تُخْطِئْ -لهمْ- ثُغْـرَةَ النحْـرِ
لنا العِزُّ.. لا بالمالِ.. والفخْـرُ.. لا بِـه إذا صـانَه الأرْذالُ للعِـزِّ والفخْـرِ
مَكـاسِبُنا الجَاهُ.. الوَجيهُ.. ومالُـنَا مُعَـدٌّ.. لـديْنا.. للمَحامِـدِ.. والشُّـكْرِ

2- مُحمد لحوار بن آدبَّ، شقيقُ سابقه الذي لقبه بـ"الحوَار" استلهاما لما يُسَمَّى في الثقافة الشعبية بـ "حوار الجنة"، كما نال نصيبه من تعاويذ الشعر، التي يحنك بها آدب أبناءه، فور ميلادهم، متنبئا لكل منهم بمستقبله المجيد الذي سيئول إليه، فقد هدهده في مهده بقوله:

إن الحـوارَ محمَّـدًا سيَسُـودُ ولقوْمِـه وعشـيرِه سـيَقُودُ

وقد صدقتْ -فعْلا- فِرَاسَةُ والدِه الذي كان- بإيمانه- «ينظر إلى الغيْب من

وراء سِتْرٍ رقيق»[1]، فقد كان محمد الحوار هذا عالِما وشاعرًا وفارسا وسيِّدا، وهو الوحيد من أبناء آدبَّ الذي رحَل في طلب العلْم، وتخرَّجَ -مُتَبَحِّرًا فِيه- من مَحْظَرَتَيْ: "الكحْلاء والصفْراء"[2]، في أحْياء قبيلة "أجيجبه"، بمنطقة البراكنة، إذ يروى أنه كان "دوْلة" لأحد أبناء الشيخ القاضي أي (زميلا في الدرس والمراجعة) حسب مصطلحات المحاظر الشنقيطية، ولم يَعْتَمِد على "الوَهْبِ" (العِلْمِ اللَّدُنِّيِّ)، المزْعوم توارُثهم له من أبِيهم الذي نالَ ما نالَ من مَكانتِه الرُّوحِية والعِلْمِيةُ، دون كسْبٍ مَعْرِفِيٍّ مَشْهُود، هذا مع مُفارَقةٍ أخْرَى تُعَزِّزُ هذا المَنْحَى، تتمثَّلُ في أنَّ "آدبَّ" غطَّتْ شُهْرَتُه على صِيت إِخْوَتِه وَأبْنَاء عُمُومَتِه، رغْم أنَّه الوحيدُ -بيْنهم- الذي لمْ يرْتحِلْ فِي طلَبِ العِلْم، وكذلك ابْنَاهُ: سِيدِيَّ والشيخ أحمد، اللذان غطَّتْ شُهْرتُهما على شُهْرة أخيهما: مُحمد الحوار، رغْم أنَّه تفرَّدَ -دونهما- برحْلة عِلْمية مُظَفَّرَة. وقد حاولَ شَقِيقُهُ الأكْبَرُ: سِيدِيَّ إقناعَه، بالرضى بطريقة الأسْرة، ضاربا له المَثَلَ على جَدْواها بما ناله والدُهما: "آدبَّ"، وبما نالَه "سِيدِيَّ" نفسه، من مَواهبَ " لَدُنِّيَّةٍ"، مُؤلِّفا في ذلك رسالة سمَّاها: "فتْح القهَّار في الرَّدِّ على محمد لحْوار".

المهم أنَّ محمد لحوار قد ناله نصيبه من ميراث شاعرية القوم، فهو بعد تخرجه من محظرتي الكحلاء والصفراء، استقر به المقام في منطقة الحوض الغربي، حيث فضل التوطن بين ظهراني أولاد الناصر، وعاش هناك مبجلا، ورزق هناك بابن جعله سميا لأخيه سيد مْحمد بن آدب، وبابنة جعلها أيضا سمية لأخته: خْديجة بنت آدب الكبرى، التي توفيت في تكانت عند وادي النبط، فاستشعر

---

[1]- أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري: **المجالسة وجواهر العلم**، ج 2، تح : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية، البحرين، أم الحصم ، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1419هـ، ص 415.

[2] - اسم لمحظرتين، كانا في تلك المنطقة منذ حوالي ثلاثة قرون، أخذتا لونيهما من لوني الخيمة الكحلاء المنسوجة من صوف الضأن، والخيمة الصفراء المنسوجة من وبر الإبل. وقد تخرج منهما خيرة علماء البلد.

الشيخ أحمد بأن هذه ربما تكون إشارة إلى أن مدفنها سيكون مستقر الأسرة، وموطنها الخاص في تكانت[1]، وقد تصيدنا له أبياتا يخاطب فيها محمد لحوار أخاه الشيخ أحمد، ربما بعد وفاة أخيهما الأكبر سيدي بن آدب، إذ يبدو أنها كانت اعتذارا له عن تفرُّقهما، وانتباذ كلٍّ منهما مَوْطِنا قصيا خاصا به، وفيها اعتراف واضح من طرف الأخ الكبير بخلافة الأخ الصغير:

سلام مرتهن، بالشجو، والأسَـــفِ ... حِلْفِ الأسى، والبُكا، والأدْمع الـذَّرُفِ
مُرْضٍ بِـمَا يُشْـتَهَى مِنْـهُ، ومُنْكَسِـرٍ ... وبالـذي لمْ يكـنْ، وَكـانَ، مُعْتَـرِفِ
إلى ثِمال الورَي مُشْكِي الشُّكَاة، ومَـنْ ... هُـوَ الخَلِيفَـةُ مِنَّـا، عَـزَّ مِـنْ خَلَـف
وبَعْـدُ فلْـتَعْلَمَنْ أَنِّـي- وَخـالِقِنـا ... عمَّا يَسُـرُّكَ -مِنِّـي- غَـيْرُ مُنْحَـرِفِ
ولا أقصـــرُّ فِي أَمْـــرٍ، تشـــيرُ بـــه ... وَغَـيْرَ مَـا تَرْتَضِيـهِ لمْ أَقْلْـهُ بـــفِي
ولمْ أَفَضِّـلْ -بفضْـلِ الله- كوْنَـكَ في ... درْس المدارس، عنْ مَلْهَـاك بـالعزف
أَمَّـا الفِـرَاقُ فـلا تـنَهضْ رَواحِلـه ... مَا اعْتِيدَ -قبْـلُ- فِراقُ اللّام للْألـفِ
فارْحَلْ، بنَا، كُلّنَـا، إنْ كنْـتَ مُـرْتَحِلا ... أو فَلْـتُقِمْ مَعَنَـا فِي خـيْرِ مُؤْتَلَـفِ
إنَّ المقـامَ -بـلا جـدْواكَ- يـا أمَـلِي- ... عيْنُ العَنَا، وَالأَسَى، والحُزْنِ، والتَّلَفِ

ثم نراه في أبيات أخرى يعتريه وازع "النفس اللوَّامة"، المُسَلَّط دائما -في وجدان القوم- على نازع "النفس الأمَّارة"، بالفرح والأبهة والطرب:

من سُوءِ ما عملتْ نفْسـيَّ، مُكْـتَرِبٌ ... فـرِّجْ كـروبي، إلهـي، فـارجَ الكُـرَبِ
واغفِرْ -إلهـي- ذنوبـا، كنـت أفْعلُهـا ... واصفحْ، وسامحْ، عن اللذاتِ، والطربِ
وأوْلِني -منـكَ- أسرارَ العلـومِ، بـلا ... كـدٍّ، ولا تَعَـبٍ، يـا وَاهِـبَ الطَّلَـبِ
والله يقـــضي -بـــلا رَيْـــثٍ-..... ... بجـاه أحمـدَ- مـا أرْجـوه، مـنْ أرَبِ
عليـــه مـــن صـــلوات الله أفْضـــلُها ... من ساد-في البدْء، ثم الختْم، كَلَّ نَبي

[1]- لقد أهداهم بعد ذلك أولاد البح مرقع النبط، فاستوطنه أهل آدب، وبنوا فيه وغرسوا، وأصبح عاصمة العائلة إن صح التعبير.

ثم يواصل تضرعاته، المشفقة، من عقاب الله:

عبْدٌ.. شَجَاهُ.. لَمَا رَأَى.. من حالِهِ حـذَرُ القطيعـةِ مـن لذيـذِ وِصـالِهِ
عبْدٌ.. تَرَاكَمَ.. مِنْ كَـثَافَةِ ريْـنِه بحِجـاهُ.. جَالِـبُ حتْـفِه.. ووَبَـالِهِ
وبصَـدْرِه- ممَّـا يُجِـنُّ مِـنَ الأسَـى زَفَـرَاتُ ذِي فـزَعٍ، مَـرُوع، والِـهِ
فـإذَا تَرَاكَمَـتِ الهُمُـومُ.. فحَسْبُه ربٌّ يَـرَى مَـا لا يُـرَى مـنْ حَالِـهِ
يَدْعُو، ويَرْجُـو أنْ يُقابَـلَ.. بالَّـذِي يَعْـتَـادُ مـن إفْضـالِه.. ونَوَالِـهِ
مُتذلـلا، مُتَبَـتِّلا، مُتَنَـصِّلا مما جَـناهُ، بقـالِهِ، وفعالِـهِ
ومُـؤَمِّلا نيْـلَ المُنَـى.. مُسْـتَنْفِعا بجَـلالِه، وجَمـالِه، وكمـالِهِ
مُسْتَشْـفِعا، بشـفيعِنا طـه الرِّضـا مسْتَمْسِـكا، بالغـرْزِ مـن أذْيَالِـهِ
صـلَّى عليْـه إلهُـهُ.. في حزبـه وعـلى الأفاضـلِ، صَـحْبِهِ، في آلِـه

وقد توفي رحمه الله في حياة أخيه الشيخ أحمد بن آدب، الذي رثاه ببيتين، يلخصان بعض شيمه المحمودة، إذ قال:

العِلْمُ، والحِلْمُ، حَنَّا، حنَّتِ الحِكَـمُ والحُكْـمُ أنَّ، وأنَّ الجُـودُ، والكَـرَمُ
وكـلُّ مُعْضِـلَةٍ طمَّـتْ بِدَاهِيَـةٍ حَنَّتْ، كذا السَّيْفُ -يا للناسِ- والقَلَمُ

3- سيد مْحمد بن آدب، ثالث الإخوة، الذي لا نعرف عنه كثيرا، لأنه كان أولهم وفاة ولم يعقب، غير أنه -هو الآخر-فعلت فيه- قبل مغادرته السريعة للحياة- ثنائيات: الآذان/ الشعر، الإيمان/ الإبداع/ ، الدين/ الأدب، التي كان آدب "رب بيت القصيد" هذا يحنك أولاده بها، فقد وجدنا له أبياتا يستشفي فيها من غنة كانت في صوته، ربما يخاطب فيها والده، أو أخاه الأكبر سيدي:

الحمـد لله مُنشـي الخَلْـقِ إنْشـاءَ بَانِيـه، مِـنْ عَـدَمٍ، مُفْنِيـهِ، إنْ شـاءَ
مِنَ الذَّلِيلِ، حَقِيرِ القـدْرِ، مَـنْ سَـاءَ إلى الجَلِيـلِ عَظِـيمِ القـدْر، إنْشـاءَ

تحيــة، كرُمَــتْ، كالبــدْر، في حُسُــنٍ كالشــمْسِ، إنْ بــرزتْ، غــرَّاءَ، سَرَّاءَ
وبعـــد، مُوجِبُـــهُ أنِّي- وحَقِّكـــمُ أرجو الشفاءَ، وأخْشى الغمَّ، والـدَّاءَ
والــلام، بــالنون، أخشــى أنْ أُبَدِّلَــهُ وأنْ أغَــيِّرَ مــا قــدْ قُلــتُ، والــرَّاءَ

4- الشيخ أحمد آخر العنقود من أبناء آدب، (1865 ـ 1944م)، وقد أخذ صفة الشيخ اسما، منذ ميلاده، وكأن أبويه سمياه بذلك باعتبار ما سيكون فعلا، إذ رأينا والده يتنبأ له بذلك المستقبل الأكبر من مجرد هدهدة طفل وليد في مهده، وكأنه كان يرشحه باكرا لخلافته في الأسرة، وفي الطريقة، وفي كلِّ الفَضائِلِ، لقد قال فيه:

إليكَ تُضْـرَبُ أكْبَـادُ العَطامِـــــيسِ يَــا شــيْخُ أحْمَــد نِــبْرَاسُ النَّبَــاريسِ
تَسْــعَى إليْــكَ رُوَّادُ الحَــاجِ مِــنْ بُعُــدٍ فَيُفْلِحُـــونَ.. بتخْويــلٍ.. وتقْــدِيسِ

وقال له:

الشيخ أحمـدُ.. فخْـرٌ.. حـين يُفْتَخَـرُ مــا إنْ يُشــابِهُه بحْــرٌ.. ولا مَطــرُ
بجُودِ يُمْنَـاهُ.. جـادَ البـاخِلُونَ.. كـما -مِنْ راحتَيْهِ- بُحُـورُ العِلْـمِ تَنْفَجِـرُ
معلِّمٌ.. عـــــالِمٌ.. علَّامَـةٌ.. عَلَـمٌ قد فــاقَنا.. وكـذا مَـنْ قبْلَنـا غَـبَرُوا

وقد وصفه أخوه الأكبر، وشيخه بعد أبيه: سيدي ولد آدب، في أبيات شعرية بلقب:" شيخ المشايخ"، وفي قصيدة سابقة اعتبره أخوه الأكبر منه أيضا محمد لحوار: (هُوَ الخَلِيفَةُ مِنَّا، عَزَّ مِنْ خَلَــف).

وهكذا تربى الفتى -أساسا- على يد أخيه الأكبر وشيخه: سيدي بن آدب، الذي تولى بعده زعامة الأسرة، ومشيخة الطريقة الصوفية القادرية الكنتية المختارية، التي كان أبوهما عبد القادر "آدب" مجازا فيها من طرف الشيخ سيدي الكبير، حامل لواء هذه الطريقة في موريتانيا وأحوازها.. فقد تربى في حضن أبويه وأخوته، وكان الفتى المدلل بينهم جميعا، وقد استقطبته في زهرة شبابه ثلاثية الفتى: الفارس/ الشاعر/ العاشق، الذي يبدي فروسيته على صهوات الخيل،

وشجاعته في المعارك الحتمية في البلاد السائبة، ويتفنن في الغزل بأميرات الجمال والحسب في المنطقة، إلى درجة أن أخويه: سيدي، ومحمد الحوار كانا يجتهدان في محاولة كفكفة جموحه، حتى ضاق بنفْسهما اللوَّامة، فقال يخاطبهما في بواكيره الشعرية: (البسيط)

والله لـو علِـمَا مـا قـد أصـبْتُ بـه ... فِي ما ظننتُ، لَفِي ما رمتُ قـدْ شرَعـا
إنْ مَـتُّ مـن أجْلِـهِ رُوحـيّ تلـزمهمْ ... فِي شرْع مَنْ قد غدا للشرْع قد شرَعـا
بَانَ الـذين بنَـوْا في القلْـبِ مَسْـكنَهمْ ... وخَلَّفوا الشجْوَ، والأشْـجَانَ، والوَجَعـا
فالعيْنُ، منْ كمَدٍ، تبْكِي، ومنْ أسَفٍ ... والقلـبُ، مـن وَلَـهٍ، كأنُّـه نُزِعَـا
وكنْـتُ فِي وَلَـعٍ، والحُـبُّ تيَّمَنِـي ... والبَيْنُ -يـا ويْلتِـي- قـد زادَني وَلَعـا
ولامَـتِ النـاسُ في حُـزْنِيّ إثْـرَهمُ ... والحُزْنُ للقلْبِ -يا للناس- قد صَرَعا
ليْتَ العَـذولَ الـذي بالشَّـجْوِ أنَّبَنِـي ... بمَا فُجِعْـتُ بـه - مـنْ بيْـنِهِمْ، فُجِعـا
قـد كـانَ يُضـحكُني دهْـري بقـرْبهمُ ... واليوْم أبْدَلِني، من ضِحْكِيَ، الجَزَعـا
والفصْلُ، بعْد لذيذِ الوصْل، أجْهَدَنِي ... والقُرْبُ بالغَرْبِ مَبْـدُولٌ؛ فقـدْ مُنِعـا
وكثْـرَةُ المَـرْءِ -قـد قـالوا- بإخْوَتِـه ... والقلُّ منْ نَحْـوِهِمْ بِي الآنَ قـدْ وقعـا

وبعد مراجعات شعرية وغير شعرية بينه وبين أخويه، أفرغ سيدي في وجدان الشيخ أحمد رقيته الشعرية، ونفثته السحرية، التي أخذته من جدلية فتوة الحرب والحب، إلى مدار محبة "الرب"، إذ قال له:

عَتَبْتُكَ.. فاهْنأ.. لا عِتَـابَ.. ألا فاهْنـا ... ومأتاكَ -أيًّا كانَ- عنْـدي هو الأهْنَـا
أُحِـبُّ الـذِي أحْبَبْـتَ.. غَـيْرَ مُحَـرَّمٍ ... وأبغضُ ما أبْغضتَ بالحِسِّ، والمَعْنَـى
وأبذلُ.. مَـالِي.. في رضـاكَ.. وكلَّـما ... حَمَيْتكَ.. لمْ أمْنَعْهُ حِرْصًا.. ولا ضَـنَّا
ولكـن.. لأمْـرٍ.. لمْ أُكَلَّـفْ.. بنـشْرِه ... مَغَبَّـــتُه محْمُـــودَةٌ.. لَـنْ اسْـتَأْنَا

فمن هنا، أدرك هذا الفتى أن "من يتقي الله البطلْ"، فأخذ نصيبه وافيا من ميراث جدلية الكسب والوهب في تكوين أسرة أهل آدب في العلم والأدب

والتربية، بحيث لم تسجل للشيخ أحمد أية رحلة خارجية في طلب العلم أو التصوف، ورغم ذلك فإن آثاره الباقية يستفاد منها أنه متمكن من ناصية الأسلوب الأدبي الرفيع، الذي يعد بصمة فنية مميزة لنثر المدرسة الكنتية الشرقية والغربية معا، شأنه في ذلك شأن أخيه سيدي وأبيهما آدب، وجل سلالة أهل مْحمد ولد الطالب أعمر بن خيري البوسيفيين، كما أن بعض آثاره توحي بمكانته الفقهية العلمية، أما من الناحية الصوفية فسرعان ما أصبح مرجعية الطريقة القادرية داخل فضاء كنتة الغربيين، فكما كان والده **عبد القادر "آدب"، شيخا** في فضائه الجغرافي الاجتماعي الواسع، حيث عُدَّ -حسب روايتنا الأسرية- من ضمن **مريديه: ثلاثة** من **أبناء باب أحمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي،** هم: **سيد مْحمد** الملقب بـ **"أچَّ"**، و**عابدين، والبكاي،** و يبدو أن **"أچَّ"** كان صديقا لآدب، مشيدا به ، وببعض كراماته التي تروى عنه، وله فيه قصيدة، ميمية جميلة، هكذا كان تلاميذ الشيخ أحمد -حسب روايتنا الأسرية أيضا- من أبناء الشيخ سيدي المختار الكنتي:

1- الشيخ بن عابدين بن باب أحمد بن الشيخ سيدي المختار، وأولاده الثلاثة:

ا- باب أحمد بن الشيخ بن عابدين.

ب- البكاي بن الشيخ بن عابدين.

ج- السبقه بن الشيخ بن عابدين.

ومن أبناء الشيخ سيدي محمد الخليفة بن الشيخ سيدي المختار الكنتي كان من تلاميذه:

2- الشيخ (الديه) بن باب بن سيد مْحمد الكنتي بن الشيخ سيد محمد الخليفة.

ومن أولاد بوسيف:

3- الجيلي بن أحمد انبسيف في تكانت.

4- حم بن سيدي بن آدب في البراكنة.

5-"خُ" بن سيد أحمد بن سيد الأمين زعيم أولاد بوسيف في الحوض الشرقي.

ومن أولاد سيد حيبل في تكانت:

6- زعيمهم العام: أحمد بن سيد مْحمد بن أحمد.

7- عمار بن أمحمد بن محمد لحمد.

8- أخوه: الشيخ بن مْحمد.

ومن أولاد التناكية (أولاد سيد حيبل):

9- حمود بن لمرابط.

10- أخوه محمد المختار بن لمرابط.

ومن أولاد سيدي الوافي في تكانت أيضا:

11- زعيمهم: **"أچَّ"** بن أحمد بن محمد محمود بن أمينوه.

ومن المتغبرين:

12- عبد الله بن شماد.

ومن أهل الأزرق:

13- الشيخ بن أنَّ زعيم جماعته.

ومن زعماء أولاد الناصر في الحوض الغربي:

13- اعمر بن حبيب.

14- عثمان بن بكار.

أما من ناحية الزعامة السياسية، فقد اقتضت هذه المركزية الروحية، شبه الشاملة، المتشعبة الامتدادات في جل الفضاءات الكنتية وغير الكنتية، قياداتها وجماعاتها، أن يتفرد الشيخ أحمد بن آدب بكتاب "كنَّاش" في دائرة المجرية بتكانت، خاص بأهل آدب، لا يتبعون فيه لأية قيادة كنتية، ولا حتى قيادتيْ

فخذيْهم: أولاد بوسيف خُضْرِهم، وبِيضِهم، أحرى الأفخاذ الكنتية الأخرى، التي قلما يوجد لها زعيم إلا وهو مريد للشيخ أحمد بن آدب...

وقد تأسست هذه المشيخية "الآدبِّيَّة" السياسية المستقلة، بعدما نزح الشيخ أحمد من منطقة آفطوط في البراكنة، إثر خلافات بيْنِيَّة داخل أولاد بوسيف هناك، اشتد حوله تقاطبُها، ولم يستطع احتواءها، فهاجر إلى تكانت بحوالي خمسين خيمة، وحتى أهل آدب الذين بقوا في آفطوط بقيادة تلميذه وابن أخيه: حم بن سيدي ولد آدب، كانوا تابعين لسجل مشيخة الشيخ أحمد في دائرة المجرية، لا للسجلات الإدارية البوسيفية في البراكنة.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد تزوج الشيخ أحمد حورية بنت الوداني: أسرة القيادة في أولاد البح، من أولاد سيدي حيبل، ورزق منها ببنت سمَّاها: فاطمة، تزوجها فيما بعد تلميذه الأكبر والأقرب: الجيلي بن أحمد انسيف، ثم تزوج بعدها -في الحوض الشرقي- بالبساتية بنت أحمد "شَلَّه"، البوسيفية، ورزق منها بأكبر أولاده، الذي سمَّاه على أخيه "سيدي"، ثم تزوج بـ خْديجة بنت مْحمد لمحمد شيوخ أولاد سيد حيبل، في تامورت النعاج، ورزق منها بأبنائه: محمد/ الشاعر، وآدب، وسيد مْحمد، وبابنتيْه: النانة: زوجة ابن عمه الورع: الخاطر بن أحمد الصغير، ولاله: زوجة الشيخ ولد انَّ، زعيم جماعته.

وكما شارك في شبابه، مع إخوته، وجماعتهم، في معارك الدفاع عن "قصر البركة"، وما حواليها بتگانت، شارك -بعد ذلك- في إعادة إعمارها، إذ بنى في هذا "القصر"-الذي كان من "أمهات القرى" الكنتية- دارا كبيرة بمقاييس ذلك العصر، كانت بوابة حائطها قوسا تدخل الجمال المحملة عبْره، وربما يكون ذلك القوس الموجود في صور أطلال "قصر البركة" المتداولة، وقد بارك حملة تعميره تلك بقوله:

أبـانيَ قصـرِ البرْكـة، شـيِّدْه، وابْنِـهِ وبلِّـغْ تحايانـا إلى القصـرِ وابْنِـه
فـذا العـالم العلـوي راض بنـاءه وذا العـالم السـفلي جنـة عدْنِـه

أما من حيث الشعر الذي هو مركز اهتمامنا هنا، فقد كان الشيخ أحمد بن آدب صاحب أكبر ديوان ضمن هذه السلالة الكنتية البوسيفية الشاعرة، وضمن بيت قصيدها: (أهل آدب)، فقد احتفظت له الذاكرة بنصوص كثيرة، تتقاسم مضمونها جدلية: الفتوة والتصوف، فيعدل بينهما، بأن تبدأ القصيدة غزلية، ثم تتخلص إلى المديح النبوي، أو تختتم بإعلان التوبة والإنابة إلى الله، وتأنيب الضمير على التقصير، تجسيدا لتفاعلات النفسين الأمَّارة واللوَّامة، في مكابدات الإنسان الشاعر النزاع إلى الجمال من جهة، والمتصوف -أيضا- المُرَوِّض لنفسه وهواه، الساعي للارتقاء بالروح عن طينية الجسد المُخْلِدَة به إلى الأرض.

هذا في الوقت الذي ينطبع شكل تجربته الشعرية بطوابع المدرسة البديعة، التي تتطلب تقنيات محسناتها اللفظية والمعنوية امتلاك ثرْوة لغوية، تتيح التلاعب بتصاديات الطباقات، والمقابلات، وردّ العجْز على الصدر، والجناسات، وكل ما هنالك من "التزام ما لا يلزم"، وهنا نكتفي بنماذج من هنا وهناك، ريثما تسمح الظروف بإفراد الشيخ أحمد بكتاب مستقل به، هو في الطريق قريبا إن شاء الله.

فمن قصائده التي أتقن فيها لعبة الحوار الغزلي، المستعينة ببعض تلك الفنيات البديعة المساعدة على ترتيب بنية الأجوبة على بنية الأسئلة، ولو عبْر جدلية الصوت/ "هند"، والصدى/ "الشاعر"، المُرَجّع في إجاباته لأصداء جوهر تساؤلاتها، تعبيرا عن الموافقة التلقائية المتلهفة المختصرة الحاسمة على جُلِّ عُروضها المُمَنِّية المُشوِّقة. يقول في دالية من الطويل:

وبرْقٍ، شرى، وهْنا؛ فـأغْرَى بيَ الوجْـدا ... يَلوحُ، على نجْد، ومن سـكنوا نجْـدا
أرِقْـتُ لـه، والقـومُ، بالليْـل، هُجَّـعٌ ... وعيْنـايَ ممَّـا كـانَ آلفَتَـا السُّـهْدا
وليْلٍ دجَا، أرْخى السُّدولَ مُعَسْعِسًـا ... لقِيتُ، على رغْم الرَّقيـبِ، بـه، هِنْـدا
فقالتْ: حفظْتَ العَهْدَ؟ قلتُ لهـا: نعـمْ ... حفظتُ، على ما كانَ، منْكِ، لكِ، العَهْدا
فقالتْ: بمَغْنانـا مـررْتَ؛ فهـل تـرى ... به العهْدَ وكَّافا؟ فقلتُ: أرَى العهْـدا
فقالتْ: أجُزْتَ الأبْلقَ الفـرْدَ باكيـا؟ ... فقلتُ لها: دمْعي سقَى الأبْلَـقَ الفـرْدا

فقالتْ: ذكَرْتَ الخَدَّ، والنَّهْدَ، عِنْدَه؟ فقلتُ: حَرِ أنْ أذْكُرَ الخَدَّ، والنَّهْدا
فقالتْ: بلغْتَ الجَهْدَ منْ شِدَّة البُكا؟ فقلْتُ: جَديرٌ، ثَمَّ، أنْ أبْلُغَ الجَهْدا
فقالتْ: وجَلْدًا كنْتَ؟ قلتُ: ويَنْفَدَنْ تَجَلُّدُ مَنْ قدْ كانَ مُصْطَبِرًا جَلْدا
فقالتْ: نَرَى أنْ لا جُناحَ عَلَى الذي بكى الدُّورَ، والأطْلالَ، والزَّمَنَ الرَّغْدا
وقالتْ: بوعْدٍ، قدْ وعَدْتُكَ مَرَّةً أأنْجِزَ ذاكَ الوعْدُ؟ قلتُ لها: الوعْدا
فقالتْ: ودَيْن، قد عجِلْتَ تُريدُه أأنْتَ تحبُّ النَّقْدَ؟ قلتُ لها: النقْدا
فقالتْ: نرَى منْكَ الدموعَ سوافِحا أأبْدَى الهوى ما فيكَ؟ قلتُ لها: أبْدَى
فقالتْ، وقد رقَّتْ لَما بيَ مِنْ جَوى: أأرْدَاكَ طُولُ الهَجْرِ؟ قلتُ لها: أرْدَى
فقالتْ: أذُقْتَ البَرْدَ، مِنْ بَعْدِ بَيْننا؟ فقلتُ: حَمَى عيْني تشوُّقِكِ البَرْدا
فقالتْ: على مَا فيكَ منْ لاعِجِ الهوَى أراكَ تَشَكَّى البَرْدَ؟ قلتُ لها: البَرْدا
فقالتْ: فبُرْدِي مِنْهُ، يا حِبُّ، واقِيا أأنْتَ تُحِبُّ البُرْدَ؟ قلتُ لها: البُرْدا
وقلتُ: فهاتِي البُرْدَ، قالتْ مُجيبَةً: أتطْمعُ رِفْدًا؟ نَحْنُ لا نَبْذُلُ الرِّفْدَا
مَواعيدُنا زُورٌ، وكمْ غَرَّ قوْلُنا أخَا الرُّشْدِ، حتَّى صارَ لا يَعْرِفُ الرُّشْدا

وله أيضا هذه النونية من الكامل:

قَرَحَ الحَمَامُ بأدْمُعِي أجْفَانِي بفُنُونِ ألْحَانٍ على أفْنَانِ
ففنيتُ إذْ أفْنَي العَزاءَ بشدْوهِ ما للحَمَام بشدْوه أفْنَاني
وَعَلَى الغَضَى مُتَرَنِّمًا إذْ جَمْرُهُ يُذْكِي الأضالِعَ، وَهْوَ في الأغْصَانِ
وغَدَا يُطارِحُنِي البَكاءَ، وإلْفُهُ دَانٍ، وإلْفِي -عنْوَة- أقْصَاني
فكَأنَّنِي ببُكائِهِ أوْصَيْتُه وَكَأنَّهُ -ببُكائِه- أوْصَانِي
ما إنْ لنا من ألْفَةٍ وتفاهُمٍ بل نَحْنُ -منْ برْحِ الجَوَى- إلْفَانِ
يا قلبُ، ما لكَ وَالحَمَامَ وَأرْبُعًا لعِبَ الزمانُ بأهْلِهَا فِي الفَانِي؟
فلئنْ غدتْ مَأْوًى لِغِزْلَانِ الفَلَا فِيهَا -وَرَبِّ البَيْتِ ذِي الأركَانِ-
غَازلْتُ غِزْلانًا، زَهَتْ، إنْسِيَّةً مِنْ قبْلِ ساكِنِها منَ الغِزْلانِ

حِـبٌّ شُـغِفْتُ بحُبِّـهِ، وبوصْـلِه ... عنِّـى يَضِـنُّ، وَشـوْقُه أضْـنانِي
وَأمَـرَّ أَحْيَـانِي بهَجْـر قاتـلٍ ... مـا ضَرَّ لـوْ -بِوِصَـالِهِ- أحيَـاني
وأمَـاتَ ذِكْـرِي، لا يُـرَى لِي ذاكـرٌ ... وبـذِكْرِهِ مَعْمُـورَةٌ أحْيَـانِي
خاطَبْتُـه بلسـانِ حـالي شـاكيًا ... فأجَـابَ بـالأحْزَانِ وَالأَشْـجَانِ

وله هذه الميمية من البسيط:

عبْدٌ عَـلَا الشـيْبُ فَوْدَيْـهِ ومـا كتمَـهْ ... لـو كـانَ يُمْكِنُـهُ كتْمانُـهُ كتَمَـهْ
بـلْ لا بَقَـاءَ لليْـلٍ كـانَ حَادِيَـه ... صـبْحٌ مُنـيرٌ عليْـهِ نـاشرٌ عَلَمَـهْ
لَّـا رأى البِـيضُ بِيضًـا في مَفارِقِـهِ ... أَبَـيْنَ تَكْلِيمَـهُ، والسُّـقْمُ قـدْ كَلَمَـهْ
قد كانَ يأبَى -كَلامَـا- دلَّ كُـلِّ رَشـا ... وَاليَـوْم تمْنعُـه الأرْشـا وَلَـوْ كَلِمَـهْ
فقـالَ، مُنتَحِبًـا: خُنْـتُنَّ؟ قُلْـنَ: أمَـا ... تَـرَى ابْـنَ دَايَـةَ عَزَّتْـهُ الأَنُـوقُ؟ فَمَـهْ
وكُـنَّ، إنْ زارَ، أو إنْ رِيءَ، مِـنْ بُعُـدٍ ... يُعْوِلْنَ، مِنْ شَغَفٍ، يُعْلِـنَّ: وَا سَـقَمَهْ
البِيضُ يُنْكِرْنَ مَا قد كان مِنْكَ، فخُـضْ ... بَحْـرَ السُّـلُوِّ، وَذَرْ مـا كُنْـتَ مُغْتَنِمَـهْ
وابْكِ الشبابَ، ووصْلُ البِيضِ مَأْتَمُـهُ ... أقِمْهُ -وَيْكَ- وَخَلِّ العَـيْنَ مُنْسَـجِمَهْ
بل بالبكـاءِ أحَـقُّ الـذنْب، فابْـكِ لـهُ ... وعَدِّ عـمَّا مضـى، لا ترْتكِـبْ زِيَمَـهْ
نُـحْ نـوْحَ أمِّ وَحِيـدٍ إذْ تصـابُ بـه ... ودَمْعكَ، الدَّهْرَ، منه اسْتَمْطِرَنْ دِيَمَـهْ
فـالعمْرُ ولَّى، وليْـلُ الجهْـلِ غيْهَبُـه ... عـاضَ البَصـيرَةَ مـن أنْوارِهـا ظُلَمَـهْ
أضـعتَ عمْـركَ، في غَـيٍّ، وفي سَـفَهٍ ... مَنْ ضَيَّعَ العُمْرَ فِي البُطْلَانِ قـد ظَلَمَـهْ
آنَ ارْعِواؤكَ، إذْ حانَ ارْتِحالُـكَ، عـنْ ... دُنْياكَ، حالُكَ مَـنْ سَـوَّاكَ قـد عَلِمَـهْ
فمَنْ لعاصٍ عـلى العصْـيانِ مُعتكـفٍ ... وأسُّ رُكْنِ التُّقَى بالـذَّنْبِ قـدْ هَدَمَـهْ
ضارٍ، بـمَا ضَرَّ مِـنْ نـوْمٍ ومـنْ كسَـلٍ ... مُغْـرًى بـما غَـرَّ ممَّـا يقْتضِـي نَدَمَـهْ

وله هذه اللامية من الوافر:

أضرُّ الـــشَّيْءِ بالقلْـــبِ العَلِيـــلِ ... هَـــدِيلُ الـــوُرْقِ تَهْتِـــفُ بالهَـــدِيلِ
كـــذاكَ إذَا يَئِـــلُّ الـــبَرْقُ وَهْنـــا ... فوَيْـــلٌ للعَلِيـــلِ مـــنَ الأَلِيـــلِ
ســـألْتُ مُعَـــذِّبِي بـــالهجْرِ ظُلْـــمًا ... بـــما سَـــأَلَ الكَلِـــيمُ مِـــنَ الجَلِيـــلِ
دَلِيلُـــكَ مُـــدَّعَى، فـــأقِمْ دَلِـــيلًا ... فَـــمَا يُغْنِـــي الـــدَّلِيلُ عـــنْ الـــذَّلِيلِ
فقَـــالَ: بـــأنَّ حُبِّـــيَّ ادّعَـــاءٌ ... ومَـــالِي فِي المَحَبَّـــةِ مـــنْ سَـــبيلِ
شُـــهُودُ الحُـــبِّ لِي: سَـــقَمٌ، وَسَـــهْدٌ ... ودمْـــعٌ بالعَويـــلِ مـــعَ الزّويـــلِ
عـــدلْتَ عـــن العُـــذُولِ، وهـــمْ عُـــذُولٌ ... فـــمَا هَـــذَا العُـــذُولُ عَـــنِ العُـــذُولِ؟
فجُـــدْ لِي بـــالنَّوالِ، ولَـــوْ قَلـــيلا ... ففِـــي بَـــذْلِ القَلِيـــلِ شِـــفَا الغَلِيـــلِ

وله أيضا من الطويل هذه الميمية:

وظبْيٍ، كحِيلِ الطرْفِ، والحُسْنُ عَمَّهُ ... أبـــانَ وِصـــالي مـــذ دَعـــانِيَّ: عَمَّـــهُ
فـــزادَ غرامـــي فيـــه أنْ زادَ في الجفـــا ... وقلبِي -بطول الهجْر- ضاعفَ غمَّـــه
وَخـــبَّرَنِي: ألَّا ســـبيلَ إلى الّلقـــا ... فَلـــمَّا وعَـــى سَـــمْعِي المَقـــالَ أصـــمَّهُ
فبـــتُّ بشـــوْقٍ، لـــوْ يُصَـــبُّ قَلِيلُـــهُ ... علَى الصخَر الصيْخُودِ، صـــدَّعَ صُـــمَّهُ
فقلتُ: علَى مَ الهجْـرُ يـا غايـةَ المُنَـى؟ ... فقـــالَ: حـــديثٌ بيْننـــا الشـــيْبُ نَمَّـــهُ
فبـاتَ الأسَـى فِي القلْـب يُوقِـدُ نـارَه ... وبَـاتَ الهَـوى العُـذْريُّ ينفـثُ سُـمَّهُ
فـــذُمَّ ديـــارا، بعْـــدَ دارِ اجْتِمَاعِنـــا ... وعيْشًـــا لنـــا، مـــن بعْـــدِ تيلـــكَ، ذمَّـــهُ
وإنْ أسْعدتْ سُعْدى، وسُعْداكَ قدْ قَلَتْ ... فبَحْرَ النَّدَى، نُورَ الهُدَى، البَـدْرَ، أُمَّـهُ
رؤوفٌ بمَـنْ وَالَاهُ، قـد فـاقَ رأفَـةً ... أبَـاهُ الـذي ربَّـاه طفْـلا، وأمَّـهُ
فـــذا عبْـــدُ ســـوءٍ، أَوْبَقَتْـــهُ ذُنُوبُـــه ... عَلَى شَـعَثٍ، قـدْ جَـاءَ، يَـا بَـدْرُ، لَمَّـهُ
ففِي هـذه الأولَى، وأخْـراهُ، ضـيْفُكمْ ... وضـيْفُكمُ، حقًّـا، إذَا القَـبْرُ ضَـمَّهُ

وله أيضا من الوافر:

أَلَا هَـــلْ للمُتَـــيِّمِ مِـــنْ وِصَـــالِ ... يُكَفِّـــرُ ذَنْـــبَ أَيَّـــامِ الفِصَـــالِ
أَلَا هـــلْ مَـــنْ يَـــرِقُّ لـــذِي سَـــقَامٍ ... لَحَـــرِّ الشَّـــوْقِ والتَّهْيَـــامِ صَـــالِ
يَبِيـــتُ مُؤَرَّقًـــا، ويَحِـــنُّ دَأْبًـــا ... حَنِـــينَ النِّيـــبِ ثَاكِلَـــةَ الفِصَـــالِ
تُشَـــوِّقُهُ الرِّيـــاحُ إذا تغنَّـــتْ ... وتُبْكِيـــهِ الطُّلُـــولُ عَفَـــتْ بَـــوَالِي
ويُعْجِبُـــه النَّســـيمُ يَمُـــرُّ مَـــرًّا ... وتُوحِشُـــه الـــبُرُوقُ عَـــلَى القِـــلَالِ
ويُبْكِيـــهِ الـــتَّرَنُّمُ وهْـــوَ مُغْـــرًى ... بقَعْقَعَـــةِ الحِجَـــالِ مَـــعَ الخِـــدَالِ
ولســـتُ أصُـــدُّ إنْ أحْبَبْـــتُ حِبًّـــا ... ولَّـــا يَنْهَنِـــي شَـــيْبُ القَـــذَالِ
غـــدَوْتُ مُتَيَّـــمًا وبَقيـــتُ نِضْـــوًا ... بِحِـــبٍّ بـــالمُتَيَّمِ لا يُبـــالِي
يُحَـــاذِرُ يقْظَـــةً مـــن أنْ أرَاهُ ... ونوْمًـــا أنْ أرَى طَيْـــفَ الخَيَـــالِ
أرِيـــدُ الوصْـــلَ منْـــه، وعـــن فِـــراقٍ ... يُـــرَى لم يـــالُ، وا أسَـــفِي، ويـــالِي

وتتجلى مشيخة الشيخ أحمد الشعرية أيضا من خلال مشاعراته الكثيرة، التي تمتد خارج فضائه الاجتماعي الضيق، إلى فضاءات قبيلة وجغرافية متعددة، متسمة ببصمة الودِّية المُطْلَقَةِ، والبعد عن المنافرات والمهاترات، إذ كان هو قطب بريدها الذي يتوافد إليه وارِدُها بالمحبة والتقدير، ومنه ينطلق صادِرُها ردا بالمثل وأكثر، وذلك ما يعنى أن الشعر أصبح -داخل "بيت القصيد" هذا- هو لغة التداول المحببة، ولسان المراسلات المهيمن، وخطاب الحب والحماسة، وله في ذلك سلف ومورثات متأصلة، فـ "القصيدة الأربعينة" الآنفة الذكر، مثال للمشاعرة البوسيفية الخضراء عموما، ففيها تساجلَ أربعون فارسا من الشعراء يتذامرون لخوض معركة مصيرية بالنسبة إليهم، والوالد "آدب" نفسه رأيناه يساجل الحامد بن أمينوه خلال لحظة توديع مخلدة، و"سيدي" ساجل والده "آدب" بطريقة غير مباشرة، إذ خَمَّسَ إحْدى قصائده، فتداخلت شاعريتا الوالد والابن في نسيج نص واحد مشترك بينهما، كما أنه تبادل الشعر مع مضيفه في حضرة أهل الشيخ سيدي المختار الكنتي بأزواد، في لحظة توديع أيضا، أما الشيخ

أحمد فقد استقبل-منذ صرخة ميلاده- هدهدات والده "آدب" بالشعر في مهده، وتلقى تربية أخيه وشيخه سيدي عبر سجال شعري متكرر بينهما خلال فتوته، كان فيه الخطاب الشعري التربوي من سيدي للشيخ أحمد بمثابة الخطاب النثري في كتابي "جنة المُريد دون المَريد"، و"إرشاد السالك لأقوم المسالك"، اللذين ألفهما الشيخ سيدي محمد لتلميذيه الأقربين: الشيخ سيدي الأنتشائي، ومحمد ويقي بن سيد الأمين البوسيفي عم أبناء آدب، كما أن الشيخ أحمد أيضا بجَّلَه أخوه الآخر محمد الحوار بالشعر، وترضَّاه واعْترف له بالخلافة "الآدبِّيَّة".. ربما في حوار شعري ضاع أحد طرفيه، وشواهد هذه المشاعرات العائلية قد تقدمت قبل قليل، ولا داعي لتكرارها هنا.

وغير بعيد عن هذا الإطار العائلي، هناك مشاعرات بينه وبين تلميذه وصهره: الجيلي بن أحمد انبسيف، كانت إحداها حول مجالس الشاي، أدرجتها تحت عنوان: جدل السلوى والتقوى، في مقال لي منشور حول الشاي في الشعر الموريتاني، ومن مفارقات ما يلاحظ هنا أن الشيخ يُغَلِّبُ فيها جانبَ التبسُّط، ويرجو من الله العفو والسلامة في التَّنَعُّم بها، بينما التلميذ يُغلِّبُ جانبَ الانقباض، وإن كان يستبيحها في النهاية ما لم يحرمها الشرع، يقول الشيح أحمد بن آدب:

وكـــاسٍ بـــماءِ رنَّحَتْـــه غمامـــة عـــلى كـــل فـــرْدٍ منْـــه تبْـــدو عِمَامَـــة

ويقول الجيلي بن أحمد انبسيف:

لـئنْ كـانَ مـن صـافِي الأتَـاءِ سَـلامَة لَمَـنْ همُّـه التَّقْـوَى فتْلـك الكرامـة

وهناك عدة مشاعرات أخرى بينه وابن عمه: الشاعر العالم: محْمد بن الدي؛ حفيد أحمد بن سيد الأمين شقيق عبد القادر "آدب"، حيث يعاتب الشيخ أحمد قريبه:

خلـيلي، مـا للأقْـرَبينَ بَـدَا الصَّـدُّ لنا منْهمُ في الضِّيقِ، وانْمَحَـقَ الـوُدُّ؟
فيـوْمِي ولَـيْلِي في السَّـعِيرِ ولفْحِـه ويلهـيهمُ عـن وصْـليَ الخَـدُّ والقـدُّ

ويرد عليه محمد بن الدي:

لحا اللهُ خُلَّاطَ النميمة، كم جَّدُوا ... ليبعد منا العم، والأب، والجد!
فلوْلا الرواسِي من شوامِخ حِلْمِه ... لبانوا به، حيث انْتَهَى بهمُ البُعْدُ

وهناك مشاعرات كثيرة بين الشيخ أحمد، ومحمد بن باب بن باب أحمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، الذي احتفي الشيخ أحمد بمقدمه، وبالغ في إكرامه، وعندما غادره في جولته التي انتهت به إلى حضرة أهل الشيخ سيدي، كان حبل الوصل الشعري بينهما متصلا عن طريق المراسلات، مثل قول محمد بن باب:

إلى بدْر التّمامِ من الأنامِ ... وكنْز السّرِّ من أبْنَاءِ سام
لجوْهرةِ المعالي والمعاني ... وشِنْشِنَة الترَؤُس والتسامي
خلفية مَنْ تقدَّمَ منْ كِرَامِ ... كرام منْ كرامٍ منْ كرامِ
سلامٌ فاقَ أنْوارَ الآلي ... وفاقَ مَذاقهُ طعْمَ المُدامِ
عليْكَ مُكرَّرا، ألفيْ سلامٍ ... سلام في سلامٍ في سلامِّ

وكان جواب الشيخ أحمد:

ألا يا راكبا يطْوي المَوامِي ... بخُوصٍ في الفَدافِدِ كالسهامِ
إذا جئتَ الإمامَ فأبْلِغَنْهُ ... سلاما في سَلامٍ في سَلَامِ
سلاما من طلوع الشمْس أحْلى ... وأحْلى منْ مُشَعْشَعَةِ المُدامِ
سلاما من مَشوق القلْب تُحْنَى ... أضالعُه على جمْرِ الغرَامِ
وبعْد فإنَّ قلْبِي ذُو اشْتِياقٍ ... ودمْعِي بعْدَ بُعْدَكَ فِي انْسِجَامِ
أرَى ليْلَ السّليم كمِثْلِ لَيْلِي ... فجَفْني لا يُواصِلُهُ مَنامِي
ويوْمِي حَالِكٌ، والحالُ منِّي ... هُيامٌ في هُيامٍ في هُيَامِ
وشوْقي وانْتِحابي واكتئابي ... سقامٌ في سقامٍ في سقامِ
مُحَمَّدُ ذو المَفَاخِرِ هو ذُخْرِي ... وأنْسي في التحرُّكِ والمُقامِ
إمَامٌ من إمامٍ من إمامٍ ... هُمَامٍ منْ هُمامٍ منْ هُمَامِ

وعندما رجع محمد إلى الشيخ أحمد كان السلام والترحيب بينهما سجالا شعريا مباشرا، فقال الشيخ أحمد:

أهْـلا بمقـدمكمْ إذ كـانَ مـا كانـا من طُول غيْبـتكمْ فـالأوْبُ هـا حانـا
أهْـــلا بحارســـنا أهْـــلا برائســـنا أهْـــلا بسائســـنا سِرًّا وإعْلانـــا

محمد بن باب:

أهْـــلا بقـــرْم هُمَـــام ســـيد بطـــل صـــافي المـــودة نهْـــواه ويهْوانـــا

الشيخ أحمد:

أهْلا بمنْ فضْـلُه في الخلْـق شـاعَ وذا عَ.. اللهُ يرْفعُـــه عـــن ذاك مَوْلانـــا

محمد بن باب:

أهْـلا بمـنْ قـد سـقتهُ سـادةٌ عُظَـمَا عـــذبا زُلالا يَفـــوقُ خمْـــرَ بيْســـانا

الشيخ أحمد:

فالحمـــد لله مولانـــا وســـيدنا قـــد زارنـــا بعـــد منـــآه ومنآنـــا
لما مَـضَى مـا مضـــَى مـن بيْنـه ونَـآى يا ليْتَنِي كنـتْ قبْـل اليـوْم "دمْمَانـا"

محمد بن باب:

إذا تقاربـــتِ الأفْهـــامُ واتَّســـقتْ تُغْنِـي عـنِ القـرْبِ حِسًّـا أيْـنَما كانـا

وكما وجدنا مشاعرة مختصرة بين الحامد بن امَّيْنوه، وعبد القادر "آدب" بن سيد الأمين، وجدنا كذلك نفس المصادقة والمشاعرة ورثها ابناهما: محمد بن الحامد من علماء وأدباء أولاد سيدي الوافي، والشيخ أحمد بن آدب، فقد قال الأول للثاني:

أما -والذي أوْلاكَ من كلِّ مـا تـرضى- شـمائلَ، أعْيَـا نيْلُهـا الكـلّ والبَعْضَـا
لقـد سَرَّنَـا منْـك القُـدومُ مَـسَرَّةً يوازي لذيذَ البسْط، من طيبها القبْضا

ونبَّـــهَ مِنَّـــا أعْيُنًـــا طـــالَ غمْضُـــها فأضحَتْ بِمَحْضِ البشْرِ، لا تَألَفُ الغمْضا
شـــمائلك العليـــا شـــمائل منتـــه تبـوَّأهُ.. للفضْـل.. مالكُـه.. الأرْضى
فـأرْضَى بـه أهـلَ المَسـائلِ حجـة وأرْضَى بِـه أهْـلَ الصَّـبابةِ والمَـرْضى

فأجابه الشيخ أحمد، وكأنه يومي إلى ميراث المودة، والشاعرية، المنحدر إليهما من أبويهما:

بحبك، قد غُذِّيتُ، ذا الخُلَقِ الأرْضى وذا الحق، بالحق الصراح، ألا فارْضى
ومـن بعـد علـم الله، فأعـام بـأنني محبتُـكَ العليـا، أديـنُ بهـا فرْضـا
إذا عَـنّ أمْـرٌ في العَشـيرةِ داهِـمٌ فأنْتَ الذي أدْرَى، وأنْتَ الذِي أقْضى
فـنقْضٌ، وإبْـرامٌ -بـلاك- مُخَيَّـبٌ فإنَّ لَك الإبرامَ -في الأمْر- والنقضا
فضـائلكمْ عمَّـتْ، فللـه دركـمْ وتَمَّتْ؛ فما تـزدادُ؛ طـولا، ولا عَرْضـا

وهناك مشاعرات أخرى متعددة بينه وبين الشاعر العلوي المفلق: محمد عبد الله بن عبيد الرحمن، منها قول هذا الشاعر:

وقـوفُ الصـبِّ بالطَّلَـلِ المُحيـلِ ووشْـكُ نـوَى الأحِبَّـةِ والرَّحيـل
وإيـماضُ الـبُرُوقِ عـلى مغـاني أَلَاتِ النَّخْـل، غـرْبِيَّ النَّخيـلِ
وإيـماءُ الغَـزَالِ، وقـدْ توَلَّـتْ مَطايـا البَـيْن، بـالطرْف الكَحيـلِ

إلى أن يتخلص بقوله:

أأحْمَـدُ، إنْ دَنَـوْتَ، فـلا أبَـالي بفَقْـدِي كـلَّ ذي نَبَـهٍ نَبِيـلِ

وكان رد الشيخ أحمد:

عيُـونُ العـيْنِ إبَّـانَ الرَّحِيـلِ تَكَلَّـمُ بالضَّـمِيرِ بغـيْرِ قِيـلِ
جِمـالُ البـيْن جافلـة تَبَـارَى لَهَـا الكَسـرُ المُبَـدَّدُ مـنْ هَمِيـلِ!

إلى أن يتخلَّصَ بقوله:

وقفتُ بدُورهمْ أبْكي اشتياقا ... ومن فرْط البكاءِ بكى زَميلي
فإنْ تكُ في المَحَبَّةِ لي زميلا ... وعَنِّي ليْسَ عِنْدَكَ من عَدِيلي
أرِحْنَا بالوقُوف بها قليلا ... لتبْريدِ الغليلِ من القليلِ
مَقِيلي معْكَ تنشرُ لِي عُلومًا ... يُنَسِّي في السيوطي والمغيلي

وأخرى بينه وبين أدي بن الزين العلوي أيضا، حين أهدى له كتابا فقال:

يا مَنْ أنارَ الدُّنا، والدِّينَ، إيضاحا ... فصار- للأمْن، والإيمان- مِقْتَاحا
هذا كتابٌ، كرُوحٍ، خامرتْ جَسدا ... بل كارْتياحِ النَّدى، بل يُشْبِهُ الراحا
نرْجُو-من العُدْمِ، والأوْزَار- راحَتَنا ... متى -براحتكمْ- عنوانُه راحا

فأجابه الشيح أحمد:

وافى الكتابُ، ومذْ وافَى-لرؤيته- ... قُمْنا نصفق، أشباحا، وأرواحا
يا حُسْنَه من كِتابٍ؛ لفظه درر ... وريحه عبقٌ -كالمسك- إن فاحا!
فاللهَ أسأله- عفْوا، لكمْ، وغِنًى ... ما كلُّ نذْب إليه جدَّ، وارتاحا
ما ألَّ برقٌ، وما هبت يمانية ... وما المُطَوَّقُ-فوْقَ الأيْكِ- قد ناحا

وهناك مشاعرة بينه مع بابيهْ ولد أحمد الهادي سليل أسرة العلم الشهيرة، فقد كان في ضيق ما، فرأى الشيخ أحمد في المنام، فاعتبرها إحدى "المبشرات"، ففرَّج الله كربه، فسافر إليه مباشرة، وحين زاره، قال:

ثق بالذي كنت ترجوه وتهواه ... فالشيخ أحمد قد عاينت رؤياه
وقد نزلت بحمد الله ساحته ... ضيفا وقد صافحت يمناك يُمْناه
وقد نظرتَ جَبِينا كادَ يُبْصِرُه ... منْ لا يُميز سِيَمَاهُ بسِيماه
لولاهُ ما انْكشَفتْ عنْكَ الدّيَاجي، ولا ... تنازَحَ الهمُّ والأْواءُ، لولاه
ولا لقى القلبُ فيْضا عنْد رُؤيَتِهِ ... عنِ الحَبيبِ -وعنْ مغْنَاهُ- أغْنَاه

فأجابه الشيخ أحمد عند توديعه:

أســـتودع اللهَ مـــن مـــرْأى مُحيَّـــاهُ فـــوْزٌ لمـــنْ يبْتَغـــي فـــوْزًا بمَـــرْآهُ
وقرْبُـــه راحـــةٌ مِـــنْ كـــلِّ مُؤْذِيَـــةٍ وحُبَّـــهُ سُـــلَّمٌ فِي حُـــبِّ مَـــوْلاهُ
هو الجَدَى، والهُدى، للمُجْتَدِي، ولمن ضـــلتْ هـــداهُ ولم يُهْنِئْـــهُ مسْـــعاهُ
وكـــانَ وارثَ أجْـــدَادٍ وِرَاثَـــتُهمْ علْـــمُ النّبِـــيِّ دَعَـــوْا كـــلًّا بـــدَعْوَاهُ
فهُـمْ أحَـقُّ بِـه مِـنْ غـيْرِهِمْ، وهـمُ أدْرَى بألفاظِـــهِ مـــنْهمْ ومَعْنَـــاهُ
وهـمْ حُمَـاةُ الـذِّمَارِ، المُسْـتَغِيثُ بهـمْ -في الرَّوْعِ- كل ضريكٍ غَابَ مَـوْلاهُ
وهمْ جلاءُ صدَى ريْنِ القُلوبِ، وهمْ مَـنْ هُـمْ إذا الأمْـرُ أعْيَـا مـنْ تـوَلَّاهُ

هذه مجرد نماذج من مشاعرات الشيخ أحمد بن آدب، يستبين منها مدى مركزيته الاجتماعية، والثقافية، ومشيخته الشعرية، وامتدادات محبته وتقديره، وتوسع علاقته الروحية، لم أستفض فيها ولم أستقص، لأن من حقه وحقها أن يُفْرَد، هو وهي، ببحث مستقل، وأنا أعد بذلك قريبا إن سمحت الحياة.

المهمُّ هنا أنَّ أبناء "آدبَّ" كلهم كانوا شعراء، مثل سَلَفِهم، وقد تركوا الشِّعْرَ كلِمَةً باقيةً في عَقِبِهم.. أبْناءً وأحْفادا... باسْتثناءِ رابِعهم سيْد امْحمد بن آدبَّ، الذي كان هو نفْسه شاعرًا، غيْر أنَّه لم يترك عقِبا.[1]

[1] – لديه قطعة شعرية استشفائية لنفسه، سبق أن عرضناه مطلعها:

الحمـــدُ لله مُنْـــشِي الخَلْـــقِ إنْشـــاءَ بَانِيـــه مـــنْ عَـــدَمٍ، مُفْنِيـــهِ إنْ شـــاءَ

سابعـــا

شعرية أحفاد آدب
بقية البقية

هنا سنواصل تتبع انتقال الجينات الشعرية عبر أجيال الأسرة، تنزلا من الأعلى إلى الأسفل، حتى اللحظة الراهنة. فلم يستمر توارث الشعر في أي فرع من فروع السلالة السابقة الذكر باستثناء أهل آدب وحدهم، وسنتناول الأحفاد وفق الترتيب العمري لأبناء آدب أنفسهم:

أ- أبناء سيدي بن آدب

ترك سيدي ولدين: هما: سيد أحمد البكاي، ومحمد(حمَّ)، وعدة بنات هن خديجة المعروفة بلقب "ديه"، إضافة إلى "الجالة" و"الزيرة،"، ولم نرو شعرا هنا لغير حم ودية.

1- حم بن سيدي ولد آدب "ت 1963م، (شاعر بالفصحى والحسانية)

كان مريدا لعمه الشيخ أحمد بن آدب، وكان سيد أهل آدب في فضاء البراكنة عموما، وهو دفين مقبرة "بادَلِّي"، جنوب مدينة "آلاگ" وقد كان من وجهاء المنطقة البارزين، ومن أشياخها المُتَّبَعين، وصلحائها المشهورين، وقد يعارض بعض الفتاوى الفقهية في محيطه، الصادرة من طرف الراسخين في العلم، فيتعجبون في النهاية، كيف يكون الصواب حليفه، وهو الذي لم يعرف عنه طلب كبير للعلم، يضاهي كسبهم، كما عرف شاعرا باللهجة الحسانية، صاحب ذوق

رفيع في الشعر الفصيح، ونقد ظريف له، ورغم تمرسي منذ نعومة أظفاري بجمع مدونة شعر القوم وآثارهم، مشاركا مع أشقائي، ومستقلا أحيانا، فإني لم أعثر له على نص بالفصيح، إلا قبل سنة تقريبا، عندما ذكر لي زميل -هنا في الغربة- أن أحد أفراد أسرته من أهالينا "أولاد سيد حيبل" في تامورت النعاج، كان يستحضر دائما ذكرياته عن زيارات حم بن آدب لأسرتهم في تكانت، وأنه يروي له قصيدة، فكدت أطير فرحا بالاكتشاف الجديد، فطلبت منه تسجيل النص وإرساله لي، وقد تفاجأت بمستواه الفني العالي:

وسرب منَ النَّخْلِ الرَّطِيبِ برَوْضةٍ ... تُهَاجِمُهَنَّ الرِّيحُ.. طَوْرًا.. وتُحْجِمُ
وقَفْنَ.. وُقُوفَ الجُنْدِ.. عَزْمًا.. وعِزَّةً ... وكلُّ شُجَاعٍ.. في الحَياةِ.. مُكَرَّمُ
أرَاهُنَّ.. فِي جَوْفِ الظَّلَامِ.. عَرَائِسًا ... مِنَ الجِنِّ.. ترْجُو الكوْنَ.. والنَّاسُ نُوَّمُ
تَجَمَّعْنَ.. فوْقَ الأرْضِ.. فِي شبْهِ ندْوَةٍ ... ومَجْلِسِ أُنْسٍ.. لا يُفَضّ.. وَيُخْتَمُ
ومِلْنَ.. بأعْطَافِ السُّجُوفِ.. صَبَابَةً ... فماهُنَّ إلا مُدْنَفٌ.. وَمُتَيَّمُ
كأنِّي أرَى حَفْلًا.. تَكَامَلَ حُسْنُه ... وراحتْ طُيُورُ الأيْكِ.. فيهِ.. تَرَنَّمُ
ولكنَّ.. لِي.. فِي سربهن.. نُخَيْلَةً ... إليْها أُجِيلُ الطرْفَ.. دوْمًا.. وأُنْعِمُ

2-خديجة "ديه" بنت سيدي بن آدب: (شاعرة بالفصحى والحسانية)

إنها خْديجة بنت سيدي بن آدب، المعروفة بلقبها :"ديه"، التي توفيت حوالي 1968م، وقد عاشت عمرها معززة مكرمة، ما بين ولايات: تكانت والبراكنة، والحوضين: الشرقي والغربي، حيث يعتبر هذا الفضاء الواسع هو الامتداد المكاني لأسرتها، ففي تكانت يوجد عمها عميد الأسرة -بعد أبيها- الشيخ أحمد بن آدب، وفي البراكنة يتمركز أخوها حم بن سيدي ولد آدب، وفي الحوض الغربي توجد أسرة عمها محمد لحوار بن آدب، وفي الحوض الشرقي يوجد سيدي الابن البكر لعمها الشيخ أحمد، وهكذا كانت خْديجة سيدة مجتمع مكرمة معززة، أينما توجهت من فضاءاتها الأسرية المترامية الأطراف، وهي مشهورة بحب الأدب،

وتعاطي الشعر الفصيح والشعبي/ "الحساني"، حتى ليعتبر مجلسها -أينما حلت- صالونا أدبيا، تساهم هي في مطارحاته مع من لا تجد حرجا أخلاقيا، ولا مانعا دينيا في مساجلاتهم... هذا مع أن الجميع يكاد يتفق على أنها لم تكن تعرف قواعد النحو، ولا العروض بشكل تقني؛ لأنها لم تتلق تعليما محظريا نظاميا، متمثلا في كتابة المتون اللغوية والدواوين الشعرية، وحفظها ودراستها على يد الشيوخ المختصين، وهي لم تكن بدعا من "الأسطورة المؤسسة" لأسرتها، التي تؤمن بأن تعليمها وهبي، لا كسبي، ومعارفها ومواهبها "لدنية" (من لدن الله)، وليست بمقاساة التعلم على المشايخ، وهكذا كانت هذه السيدة تعتمد على سليقةٍ ثقافيةٍ فطْريةٍ، أشْبَهَ ما تكون بسجِيَّاتِ العَرَبِيَّات الأصيلات، وربما يكون عاملُ الوراثة، والبيئة الأسرية جعلها متشبعة بثقافة العصر كسبا ووهبا، فقد تربت في وسط ثقافي، وانحدرت من "أحد بيوتات الشعر" العريقة، فأبوها سيدي وجدها آدب، وأعمامها الشيخ أحمد ومحمد لحوار وسيد محْمد، جميعهم علماء شعراء، مشايخ تصوف وتربية، وزعماء مجتمع... وقد قَلَّدْتُها لقب "خنساء شنقيط" في بحث مستقل عنها، لأن شعرها قد غلبت عليه مراثي أبنائها ورموز أسرتها، مثل قولها: في رثاء عمها الشيخ أحمد بن آدبَّ:

العِلْـمُ والحِلُـمُ والآدابُ والكـرَمُ ... قـد حَـلَّ بـالنَّبْطِ مـنْ أرْبابِهـا عَلَـمُ
ماتَ العَفـافُ ومـاتَ الجُـودُ أجْمَعُـهُ ... بمـوْتِ حَـائِزِهِ، مُـذْ حَـازَهُ السَّـنَمُ
منْ بَعْدِهِ الأرْضُ أحْنَتْ ظَهرَها ثَكَلًا ... واسْـتوْطنتْ بَطْنَهَـا الأقْـمَارُ والـنُّجُمُ
وأورثَ النَّـبْط منـه مَكَّـةً بَـدلًا ... والبيْـت أورثـه والحِـلُّ والحُـرُمُ
ما بعْدَ رُزْءِ الجَليـلِ المُصْـطَفَى طمَـع ... بـأنْ تَنَـالَ البَقـا مـنْ بَعْـدِهِ نِسَـمُ
أعظْمَ لنـا، رَبَّنَـا، أجْـرَ المُصَـابِ بِـهِ ... يـوْمَ الحِسَـابِ غَـدًا إنْ حُلِّـتِ الهِمَـمُ

وفي رثاء ابن عمها محمد بن الشيخ أحمد بن آدبَّ:

صَـبْرًا فصَـبْرًا فـمَا للبَـثِّ مـن آسِ ... إثْـرَ الـذِي شَـاءَهُ الفَعَّـالُ بالنَّـاسِ

حقَّ الثَّنَاءُ عـلَى طلْـقِ اليَـديْنِ نـدًى ... مَنْ هـو للمُـرْمِلاتِ المُطْعِـمُ الكـاسِي
حـقَّ الثنـاءُ عـلى مـنْ لسْـتُ أحْسبُه ... تُحْصـَى مَزايَـاهُ فِي السّـرَّاءِ والبَـاسِ
غوْث، زعِيم بنِي ذِي السَّـيْف قاطِبـةً ... أهْلِ الفَضائلِ، في رُخْـصٍ، وإفْـلاسِ
لو كانَ يُفْدَى، بجَمْعِ الناسِ، ذُو كرَم ... يُفْدَى الفَتَى بجَميعِ الناسِ مـنْ بَـاسِ

بمناسبة بناء الشيخ أحمد بن آدبَّ داره في وادي النبط:

يَـا وَادِيَّ النَّـبْطِ، لا غَبَّتْـكَ أمْطَـارُ ... وسـاعَدَتْكَ مـنْ الوَسْـمِيِّ أنْهَـارُ
يا وَادِيَّ النَّبْطِ لَا شَـطَّتْ بِـكَ الـدَّارُ ... وحَلَّـكَ الخَـيْرُ إذْ حَلَّـتْ بِـكَ الـدَّارُ
دارٌ لأحْمَـدَ، لا زالَ المُنَـاخُ بِهـا ... كـما تُحَـطُّ ببَيْـتِ الله أوْزارُ

ولها:

لله أيَّـامُ الحَـدَائِقِ والتَّمْـرِ ... مـن النَّـبْطِ، أيَّـامُ الـذَّبَائِحِ والنَّحْـرِ
لقَـدْ خَصَّـهُ المَـوْلَى بأحْمَـدَ، شَـادَهُ ... وجَفَّتْ بِهِ الأقْلامُ، يا لكَ مِنْ قَصـرْ!

ولها

يـا زائـرَ "النّـبْطِ" إنْ تَلْمُـمْ بِـه سَـحَرًا ... سَلِّمْ، ولَا تَنْسَ حَرْفًـا فِيـهِ أوْ سَـطَرَا
قَـصْرُ المَكَـارِمِ، لا قصـرٌ يُماثِلُـهُ ... أعْيَـتْ مَدَائِحُـهُ النُّثَّـارَ والشُّـعَرَا

ب- أبناء محمد لحوار بن آدب

توطن هذا الفرع من أهل آدب في الحوض الغربي، بين ظهراني أولاد الناصر، حيث كبر ابنه الوحيد:

1- **سيد مْحَمد**، فكان (شاعرا بالحسانية)، وقد تزوج بخديجة بنت أعمر بن أحمد بن أحبيب، الملقبة "أبِّي"، إحدى بنات بيت زعامة أولاد الناصر هناك، وكان شاعرا مبدعا باللهجة الحسانية، لكنا لم نجد له أي نص فصيح...

ج- أبناء الشيخ أحمد بن آدب

هذا هو الفرع الذي انتهت إليه الزعامة الروحية والسياسية من أبناء آدب، كما أسلفنا، وقد كان ثلاثة من أبنائه الأربعة شعراء:

1- ابنه الأكبر: سيدي ولد الشيخ أحمد (شاعر بالفصحى)

كان يمثل -في الحوض الشرقي- زعامة العائلة روحيا، وسياسيا، واجتماعيا، وثقافيا. والحقيقة أني لم أعثر له على نص شعر شعبي، أما نصوصه الفصيحة فهي نتف قليلة، لكنها ذات نضج فني ملحوظ، يدل على أن وراء الأكمة ما وراءها. يقول:

بهضْبِ الذئْبِ أطلالٌ تُزارُ ... أَجَنَّبُها، وفي الدُّنْيا اغْتِبارُ
لَئنْ جَنَّبْتُها يوْمًا بِصَحْبِي ... وفي قلْبي- من التذْكارِ- نَارُ
لكمْ يَمَّمْتُها، وأقمْتُ فيها ... زَمانًا والليالي بها قِصَارُ
أعَاصِي العَاذِلينَ، وأهْلَ رُشْدِي ... ويَهْفُو-تَحْتَ سَاقِيَّ- الإزَارُ

ويقول ملغزا باسم المتغزل بها:

سَبَتْ فؤادي، بلا ريْبٍ، ولا مَيْنِ ... خَوْدٌ مُرَكَّبَةٌ من بيْنِ لاميْنِ
يوْمانِ جاورَها ذو شَيْبةٍ وَرِعٌ ... ولَّى بها عَقْلُه عَقْلَ ابْنِ يوْمَيْنِ

وله أيضا:

على رُبَيَّاتِ حِقْفِ الشيْخ منْ دَنِفٍ ... أشْهَى سَلامٍ، كأنْفاسِ الرياحِينِ
وفي الرُّبَيَّاتِ رَبْعُ ظَلْتُ أسْكنُه ... عنْ سَاكِنِيهِ كأنِّي ذاكَ يُسْلِينِي

2- محمد بن الشيخ أحمد بن آدب: (شاعر بالفصحى والحسانية)

محمد ولد آدب عَلَمًا، (ت **1958**م): (كان هو وريث أبيه الروحي والسياسي، وقد خصه الشيخ أحمد بن آدب بعناية خاصة أكثر من إخوانه، رغم أنه كان أضعفهم بنية، وقد كرس خلافته له وهو حي، إذ خاطبه:

نظـــري إليـــك برحمـــة متتـــالي وبشـــفقة تـــترى، مـــع الإجـــلال
ومَصُـــونُ سِرِّي قـــدْ أَبَحْتُـــكَ كَنْـــزَهُ حتَّـــى غَـــدَوْتَ بكـــلِّ حـــلْيٍ حـــالِ
فلْتُكْـــرِمَنْ أَبْنَـــاءَ جِنســـك كلهـــمْ ولْتَحْـــذَرَنْ مـــن قِـــيلِهِمْ والقَـــال

إنه محمد ول آدب الذي اختزل اسم هذه العائلة كلها، ومعناها وصفاتها وصيتها في اسمه، وطوي كل مبدعي العائلة ومنتجهم في ذاته، فكان -كما أقول دائما- الشجرة التي حجبت الغابة، والابن الذي كاد يكون جد أبيه، فجميع أبعاد أهل آدب الشعرية، والفكرية والروحية والثقافية والاجتماعية والسياسية، وامتدادات الأسرة في الفضاءات الإنسانية والزمانية والمكانية، لم تعد تعني في الذاكرة الجماعية غير محمد ول آدب، إنه كاد يكون "آدب الثاني"، مثلما كان نوح هو آدم الثاني، غير أن المفارقة هنا هي كون محمد لم يعقب ولدا ذكرا، رغم تعدد زوجاته، من خيرة بنات سادة المجتمع، فكان يرمز لذلك في استعاراته الشعرية العجيبة بأنه نكرة بلا تعريف، وحرف بلا نقطة مثل الألف، لكن إبداع الرجل وبركة صيته مَنَحَاهُ كل أدوات التعريف، وزرعا كل حروفه بعشرات النقاط، فأصبح كل أبناء آدب أبناءه... إذ أعطاه الله كوْثرا شعْريا رقراقا ضمن له الخلود، وهتفت به قصائده عبر التاريخ: "إن شانئك هو الأبتر".

لكن المفارقة الثانية أن محمد ول آدب مزدوج الشعرية بين الفصيح، والشعبي/ الحساني/ "لغن"، إلا أن كفَّة الحساني عنده راجحة على كفة الفصيح، حتى أني كنت أقول دائما: إنه شاعر بمعنى الكلمة في الشعر الحساني، و"مغني" بمعنى الكلمة الدارج في الشعر الفصيح... وعلى كل حال نحن هنا مرتهنون لأطروحتنا المتمحورة حول توارث الشعرية داخل شجرة هذه السلالة جذورا وفروعا، مع التركيز هنا عمليا على النماذج الفصيحة في الغالب، تاركين الوجه الآخر للأطروحة، المتعلق برحلة الجينات الشعرية، باللهجة العربية الحسانية، في دماء سلالة هذه الأسرة الشاعرة، يتجلى في كتاب مستقل بعنوان: شعر محمد بن آدب وآله، سيكون محمد فيه هو المركز، وبقية شعراء الأسرة ملحقون به، فهو هنا

هو المضاف إليه... بحق وجدارة...

أشاقــكَ -إذْ سُــحَيْرًا لاحَ بــرْقٌ- فــؤادي، نَحْــو ربْعــكَ والنــواحي
وإذ باتــتْ تُــرَدِّدُ فــوْق غُصْــنٍ حمامــاتٌ كلامَــا باصْــطِلَاحِ
ومِــنْ جَرَيــانِ رِيــحٍ بــاتَ دَمْعِــي عــلَى خَــدَّيَّ يهمــلُ مــن نُــواحي
كأنَّــكَ لمْ تَــرَى -يــا بــرْق- وجْهَــا لأحْمــدَ نُــورُه مثــل الصــباحِ
تمَتَّــعْ مــنْ دُنَــاكَ بِــذكْرِ طــه وعَظِّــمْ -مــا اسْــتَطَعْتَ- بالامْتِداحِ
فلــيْسَ -غــدا- يُؤمَّــلُ مــنْ شــفيعٍ سِــوَى خــيْرِ البَرِيَّــةِ باتِّضــاح
فيــا طــيْرا يَطــيرُ إليْــه، بَلِّــغْ سَــلامِي بالغُــدُوّ، وبــالرَّوَاحِ
ولــوْ أنِّي -كمثْلــكَ- لي جَنــاحٌ لَطَــرْتُ إلى المَدينــةِ بالجَنــاحِ
تــرَى وجْــهَ النبــيِّ إذا وُجــوهٌ قــد اذْهَــبَ بِشــرَهَا طعْــنُ الرمــاحِ
كبَــدْرِ الــتّمِّ تحْســبُه أو أبْهَــى يمينًــا إذْ يُضــاربُ بالصّــفاحِ

وله أيضا هذه النونية من الوافر:

ألا حــيِّ الرشــيد، وقــلْ مــذيعا: مقــالا لــيس مــن قــوْل المُجــونِ
وأقْرئــه مَســامِعَ كــلِّ نــادٍ وأسْــمِعْهُ الحَــمَامَ عــلى الغُصُــونِ
خَلِــيلي، لا تــدَعْ جِــذْعَا قــديمًا ولا طلــلا بــه، مــاضي القــرون
وأذرِ مَصُــونَ دمْعــكَ إنَّ عــارا عليــكَ البُخْــلُ بالــدمْع المَصــونِ
ألا يــا خــلُّ، قُــصَّ عليْــهِ بَثِّــي وحُــزْني، بَعْــدَه، أسَــفا، وهُــونِي
فــإني هاهُنــا مُلْقــى غريــبٌ قــريح الجفْــنِ مُتَّصِــلَ الشُّــجُونِ
بــأرْضٍ لا أنِــيسَ بهــا مُــواسٍ يُــؤنِّسُ وحْشــةَ القلــبْ الحــزينِ
أحِــنُّ إلَى الرَّشِــيدِ حَنــينَ ثكْــلَى مُــرَزَّأةً، مُوَاصِــلَة الحَنــينِ
فشــوْقي شــابَ مِنْــهُ اليــوْم فــوْدِي وشَــابتْ منْــهُ -مِــنْ وَلَــهٍ- قُــرونِ
فأصْــبحَ لُــوَّمِي ممَّــا رأوْني يَلُومُــونِي، فقلــتُ لهــمْ: دعــوني

وخَلَّــوا -لا أَبَــا لكــمُ- سَــبِيلِي أذِيلُ عَلَى الرَّشـيدِ -أسَّـى- شـجوني
فلــوْ غــيْرِي عَــذَلْتُمْ كــانَ أوْلَى بعَــــذْلِكُمُ لــــهُ وترَكْتُمــــوني

3- آدب بن الشيخ أحمد بن آدب: (شاعر بالحسانية)

شاعر باللهجة العربية الحسانية، ولو كان أخوه محمد قابلا للمجاراة لقلنا إنه لا يقل عنه إبداعا وتمكنا من مهارات الصناعة الشعرية العالية الجودة، لكن إشعاع محمد ول آدب كسف الأقمار من مبدعي أسرته في الشعر الحساني، بما في ذلك والده الشيخ أحمد وعمه سيدي وابن عمه ومعاصره سيد محمد بن محمد لحوار بن آدب، وابن عمه ومعاصره الآخر حم ولد سيدي ولد آدب.....

وهنا يبدو أن الشعر الفصيح توقف مدده عند أبناء الشيخ أحمد دون أحفاده.

د- أحفاد سيدي بن آدب

قلنا سابقا إن سيدي له ولدان، أحدهما سيد احمد البكاي، ولم نجد له أثرا شعريا في الفصيح ولا في الحساني، والآخر حم بن سيدي، وقد عثرنا له على نص فصيح واحد، بينما لدينا عدة نصوص حسانية له.

هـ- أبناء سيد أحمد البكاي بن سيدي

رغم أن هذا الفرع لم تؤثر له مساهمة في الرصيد الشعري الجماعي لهذه العائلة، فإن ابنيه كانا شاعرين متمكنين بالحسانية، رغم أنهما غير مكثرين ولا متظاهرين بذلك.

1- سيد محمد بن سيد احمد البكاي: (شاعر بالحسانية) توفي: 1998م

2- محمد لحوار بن سيد أحمد البكاي: (شاعر بالحسانية) توفي: 2004م

و- أبناء حم بن سيدي بن آدب

1- أدي بن حم بن سيدي: (أسكت علمُه شيطان شعره)

كان عالما، مكتمل الفتوة خلقا وخلقا، لكنه -في نظرته للشعر- كان شافعـــــي

المذهب، يرى أن "الشعر بالعلماء يزري"، وقد توفي حوالي سنة 1960م، في حياة والده.

2- آدب بن حم بن سيدي: (شاعر صامت)

- ابناه: حم، والبكاي: (شاعران)

كان سخيا بما في يده، ضنينا بما في صدره، لا يبوح بما يفعل، ولا بما يحسن، وربما يكون قد ماتت معه مواهب وإبداعات في الشعر الفصيح، والحساني، نظرا لتكتمه وعلو ذوقه الأدبي ودقة لمحاته النقدية، والمقربون منه يرون أنه كان يقول الشعر الحساني، قطعا لكنه لا ينشره، ومن أبنائه:

أ- حم بن آدب: (شاعر بالحسانية والفصحى)

هو أكبر شعراء الأسرة بالحسانية، في هذا الجيل، ورغم إبداعه المجمع عليه من طرف عارفيه من أهل الفن، فإنه لا يهتم بحفظه، ولا تدوينه، وإنما يقوله، ويهمله، وهو أقل اهتماما بموهبته في الشعر الفصيح، وقد كنا معا، فترنا في الجامعة، نشترك ارتجال قصائد، نسميها: "الحَمَّدِّيَّة" نسبة لاسمينا معا، ولم يبق عالقا بذهني منها سوى مساجلة طريفة بالشعر الهجين بين الفصحى، والحسانية المسمى عندنا:"الزريگة"؛ ففي سنة1991-1992 كانت عام تخرجي أستاذا، مزاولا للتدريس خارج انواكشوط، وقد عدت في إحدى العطل، على غير هيأة جبريل عليه السلام، عليَّ بعضُ آثار السفر، ووعثاءُ حُمَّى مُزْمنة، مع فقدي -حديثا- بعص أضراسي، فاستقبلني أخي وصديقي حم ولد آدب"الأبيض" بهذه الأبيات:

أَمِنْ أَهْلِ هذا العصـرِ؟ أَرْجُوكُمُ الفَتوَى ... أَجِيبُوا.. فهذي الناسُ في حَـيْرَةٍ قُصْـوَى
مـن أمْـرِ أبي عـــشْرين يلْـبسُ جِلْـدُه ... كسَـاةَ أبي "دِرْبالَـةٍ".. وأبي "الفَـرْوَى"
أخي "ادِّيٌّ".. في عهْدِ الشبابِ.. كما تَرَوْا ... وفي وجْهِه "كَمْشٌ".. ومنْ ظَهْرِهِ الشَّكْوَى
ولمْ يَتبَـقَّ مـن شـبابِ أخـي سِـوَى ... بَقيـة "أضراس".. (وشيْءٍ مـن التَّقْـوَى)

فاسْتَجمعتُ ما بَقِيَ فيَّ من قوَّةٍ، وأجَبْتُه، مُرَكِّزًا هُجُومِي على منْطِقَةِ الرأسِ، نقطةِ ضعْف الخَصْم العزيز:

أتُوسِعُنِي هجْوًا.. بما مِنْهُ.. لمْ "تَخْوَى"؟ وتسْألُنا فَتْوَى.. وفي رأسِكَ الفَتْوَى؟!
لكَ اللهُ! خُذْ منْ "كُفَّتِي" ألْفَ "زَغْبَةٍ ودَعْ عَنْكَ هجْوي.. إنْ تكنْ تقبلُ "الرَّشْوَا"
ولا تَكُ.. لـ"الدَّيْكَاتِ".. أوَّلَ "نَابِشٍ" فرأسُكَ.. لايَقْوَى على الضَّرْبِ.. لايَقْوَى
وإنْ عَصَفَتْ ريحٌ...تَوَارَ.. لِكَيْ تَقِي بَقِيَةَ "زَغْباتٍ".. وشِبْرًا من "الكَهْوَى"

ب- بداي/ البكاي بن آدب بن حم: (شاعر حساني)

3- سيد أحمد البكاي/ بداي بن حم بن سيدي بن آدب (ت1997م)

له شاعرية مزدوجة بالفصيح وبالحساني، كثير منها يدخل في مادة "كتاب الأغاني"، مثل قطعته الشعرية التي كتبها إعجابا بمواهب المطربين: سدوم بن أيده، وأخيه المرحوم الخليفة، وهي منتشرة عبر أشرطتهم الغنائية، ولعل من أطرف نصوصه، قصيدتاه في شيم البرق، واستنزاله الغيث على مرابعه المحبة في الحرض الشرقي، ففيهما شاعرية رقيقة محببة، رغم بعض الهنات اللغوية، وأولاهما:

شَرَى البَرْق؛ فاشتاق الفؤاد لمن يهْوى وإنْ هيَّجَ الأشواقَ برْقٌ؛ فلا غرْوَى
أشرتَ على فَتِيلَ -يا برْق- فاسْقِها ولا تَنْسَ ربْعًا للأحِبَّة قدْ أقْوَى
ولا تنْس ذَا الإراكِ بدْءً، وعوْدَةً وَعَلِّلْهُ حتّى لا مَزيدَ مِنَ الإرْوَا
وجُدْ لكثيب اليُسْرِ، والغيْضَة التي بمكْنُون سِرِّ الحُبِّ تنْشرُما يُطْوَى
وعنْدَ الغضا والضَّالِ-من "كيْبِ" فاسْتَرِحْ وألْقِ عِصِيَّ السيْر، حُقَّ لكَ المَثْوَى
فتُصْبِحَ تلْكَ الأرْضُ، وهْيَ نَضِيرَةٌ ويصبح ذاك الشِّعْبُ جذْلانَ، كالنَّشوى
فتلك بلادٌ لا تُقاسُ بغيْرِها من الأرْض في الدُّنْيا، ولا الأرْض في القصْوى
بلادٌ، أَلِفْنَاها للاحْبَاب موْطنا وكنَّا نرى مُرَّ الحياةِ بها حُلْوا
فلا تَسْقِ -يا برْقا- إذا شِئْتَ- غيْرَها وإنْ غاظَ ذاكَ الأرْضَ كلًّا؛ فقلْ: "يَسْوَى"

والقصيدة الثانية:

أرَى البَرْقَ للعُشَّاقِ -وهْنًا- إذا رَأوْا ... يُثِيرُ منَ الأشْوَاقِ ما كانَ قد نَسَوْا
نظرْتُ إلى برْقٍ تَخَافقَ وَمْضُه ... على "الخَطِّ"، قد شرَى، سوابِقُه عَلَوْا
على السَّدِ -سَدِّ الوادي- يَنْشَقُّ مُزْنُهُ ... مَدَافِعُ كُلِّ الوادِي -لا شَكَّ- قد جَرَوْا
وشَمَّرَ نحْوَ "البُونِ"؛ فانْهَلَّ، وانْهَمَى ... وعَمَّ أضَاةَ "البُونِ"، والطيْرُ قد شَدَوْا
وأبْرَقَ نحْوَ اليُسْرِ؛ فانْسَابَ عابرًا ... لغَيْضَةِ مَشْتَى الحَيِّ، حَتْمًا، وإنْ نَأوْا
وألْقَى-على "فَتِيلَ"- لفْتَةَ نَظْرَةٍ ... لسَقْيِ دِيَارِ الحَيِّ، منْ بعْدِ مَا انْتَوَوْا
وأسْرَعَ نحْوَ الضَّالِ من "كيْبِ" فالغَضَا ... وسُلَّتْ سُيوفُ الهِنْدِ، للمُزْنِ، قد بَرَوْا
فطارَ شَرَارُ النارِ، من لَمَعَانِهَا ... وحطّتْ رُؤُوسَ المُزْنِ بالذُّلِّ، فانْحَنَوْا
وجاوَبَ بعْضُ الرَّعْدِ بعْضًا، كأنَّمَا ... تَبَدَّى لقرْمِ الشَّوْلِ آخَرُ؛ فالْتَقَوْا
فهَبَّ كمِثْلِ الذّوْدِ طارَ به الظَّمَا ... تَبَدَّى له الساقِي، حَوَالَيْهِ قد جَثَوْا
فأدْنَتْ رُؤوسَ الضَّالِّ، في الحيْرِ، والغضا ... تُقَبِّلُ رَأْسَ النَّبْتِ، وَالكُلُّ قدْ بَكَوْا

ز-أحفاد محمد لحوار بن آدب

لقدر ترك سيد مْحمد بن محمد لحوار ولدا وحيدا من زوجته "أبي بنت لحيب"، سمَّاه:

1- محمد لحوار كان هو الآخر شاعرا بالحسانية، ولم يبق من وراثي شعرية هذا البيت اليوم إلا ابنه: عبد القادر، فهو شاب مبدع في الشعر الحساني.

ثامنـــا

خلاصة خلاصة السلالة الشعرية
أهْل محمد لحوار بن سيدي أحمد البكاي بن سيدي بن آدب

حين وصلت مُوَرِّثاتُ السُّلالة الشعْرية البُوسيفية، إلى أهل سيد الأمين بن مْحمد بن الطالب اعْمر بن خيري، لم يستمر ميراثها في عقب أبنائه الشعراء، باستثناء فرع أهل آدب وحدهم، وعندما تسلسل في الأبناء جميعا وغالبية الأحفاد، لم يتسمر ميراث الشعر الفصيح، حتى الآن إلا في هذا البيت الذي يلتقي فيه فرعا أهل سيدي ولد آدب، وفرع أهل الشيخ أحمد بن آدب، فأبوهم بن سيد احمد البكاي، وأمَّ كبار أولاده: بنت حَّمَ بن آدب، وأم أبنائه الصغار بنت سيدي ولد الشيخ أحمد، وما أعرفه أن أخانا الأكبر، ومعلمنا الأول:

1- **المرابط بن آدب**: (شاعر بالفصحى والحسانية)، لكنه كان مقلا منهما، وكثيرا ما يعدم ما قاله في مناسبات متعددة، لا سيما قبيل وفاته عام 2013م

2- **سيد مْحمد**: (شاعر بالحسانية)، وذواقة للأدب، يمتلك حافظة علمية وشعرية خارقة، وقد توفي 2018م

3- **سيد أحمد البكاي"ول آدب"**: (شاعر بالحسانية)، وهو مجاز في القانون، ويشبه أخاه سيد امحمد في الحافظة، وسمو الذوق.

4- الدكتور حم بن آدب: أستاذ الفلسفة، المتوفى2014م، قد كان -هو الآخر- **يقرض الشعرين**، ويتكتم عليهما ويعدمها معا، وقد كنت أحفظ بعض نتاجه الحساني الذي كان يساجل به إخوانه، يوم كنا طلابا في الجامعة، ونصه الوحيد الذي احتفظت به ذاكرتي من ذلك العهد (الثمانيات)، يوحي بشاعرية عالية، فقد قال عندما سمع غناء المطرب العريق: لكبيد بن أحمد زيدان لكافية لسان الدين بن الخطيب المديحية، التي كانت الإذاعة الموريتانية تبثها في الثمانينات:

"لكْبَيْد"، يا لَحْنًا.. تَمَوَّجَ فِي الفَضَا ... سَحَرَ الأَثِيرَ، وَأَسْكَرَ الأَفْلاكَا!
غَرِّدْ، فأَحْلَى الشِّعْرِ مَا رَدَّدْتَهُ ... فِي مَسْمَعِ الدُّنْيَا.. وَتِهْ.. بِغِنَاكَا
غيثارُكُ الصدَّاحُ، دُنْيا فِتْنَةٍ ... مِنْ سِحْرِهَا شَبَّهْتُهَا بِغَنَاكَا
فاعْزِفْ -لنَا- "لَحْنَ الخُلودِ".. وغَنِّ شِعْـ ... ـرَ "ابْنِ الخَطيبِ"، فمَا لَهُ إلَّاكَا

5- آدب بن محمد الحوار المولود عام 1973م المتوفي سنة 2005م له ديوان بالفصيح والحساني، أذكر منه حاليا مثالا واحدا، عندما كنت سنة 2000م، أقدم أمسية باسم "بيت الشعر" مع رفاقي من مؤسسيه، في المركز الثقافي المغربي، تعرضت فيها لمفهوم "الشعر الحار" حسب رؤيتي له، فإذا به يتقدم إلي -في نهايتها- بقصاصة ضمن الأسئلة المكتوبة، يقول فيها:

عزيزي، أدي فجأة جاء هذا السؤال، فاقرأه إن كان صالحا للنشر، ولست مستعدا لقراءته:

يا فتى الشِّعْر، والشُّعورِ، أجِبْني ... بِمَ تُصْلَى بُرُودَةَ الشُّعَرَاءِ؟
أَلَظَى جَهْلِنا المُسَمَّى بعِلْمٍ ... لمْ يكُنْ قطُّ غيْرَ مَحْضِ ادِّعَاءِ؟
ثوْرَةُ العصْرِ قد غزتْ "للفَيافِي" ... وبَقِينا نُطْفِي شُمُوعَ الذَّكاءِ
أمْ لهيبُ الأسْعَارِ تَحْصُدُ شعْبا ... ضاعَ، بيْنَ الحُكَّامِ، والأغْنِيَاءِ
يمْضَغُ الجُوعَ، يَحْتَسِي لِظَمَاهُ ... يَسْتَطِيبُ الأنِينَ تحْتَ الحِذَاءِ

أَسَـعِيرُ "القُصُـورِ" عـنْ فعْـلِ شيْءٍ أيّ شيْءٍ، وَلـــوْ بكـــلِّ غَبَـــاءِ؟
أمْ حَرِيــقٌ يَشُــبُّ وسْــطَ نُفُــوسٍ تتحَــدَّى أمْــوَاجَ بَحْــرِ الــدِّمَاءِ
أمْ بِـــمَاذَا؟ فـــإنَّنِي لسْـــتُ أدْرِي بـمَ تُصْـلَى؟ فِي عِـزِّ هَـذا الشِّـتَاءِ؟

6- **الدامي**: مجاز من كل الآداب في الترجمة بالإسبانية (**شاعر بالحسانية**)

7- **المؤلِّفُ** :

سأقتصر في الأمثلة على نصيبي المتواضع من ميراث هذه السلالة الشعرية، على نماذج من مراثي بعض الأسرة، باعتبار هذا الكتاب كله ليس في-نظري- إلا مرثية كتبتها بعدما استحرَّ الموت في عائلتنا؛ حيث كانتْ بِدايةُ نَزيفِ فقْدِ الأحِبَّةِ -بالنسْبة لي- عامَ 1973م؛ إذ فقدْتُ أمَّنا خديجة بنت حم بن سيدي بن آدب، رحمها الله، وَكنْتُ صغيرًا فكبرْتُ أنَا والشِّعْر، وظللنا -معًا- نَبْحَثُ عنْ كلِمَاتٍ تعبِّرُ عنْ إحْسَاسِي بفقْدها، حتى قلتُ من الكامل بعْد أكثر من ثلاثين سنة:

أمي.. نشيد الكون

أمِّي.. نَشيدُ الكوْنِ.. مِـلْءَ المَسْـــمَعِ هِبَةُ السَّمَا.. لِلأرْض.. سَــعْدُ المَطْلعِ!
أمِّي.. حُرُوفٌ.. هُـنَّ نبْعُ وُجُـــودِنا وَا شــوْقَـــنا الأزَلِيَّ.. نَحْوَ المَـنْـبَعِ!
أمِّي.. حُرُوفٌ.. تكْتَنِزْنَ حَـيَـاتَـــنا جَلَّـتْ.. بـسِرِّ الله -فِيـهَا- المُـودَعِ!
أمِّي.. حُـرُوفٌ.. يـــانِعَاتٌ بالجَنَـى حـتـى ولـوْ ثـمَـرُ الـدُّنَـا لمْ يَـيْنَعِ!
أمِّي.. حُـرُوفُ النُّور.. تُوقدُ فِي دَمِـي شُعَـلَ المَعَـانِي.. وَالأمَـانِي.. الهُـجَّـعِ!
أمِّي.. حُـرُوفٌ.. هُنَّ زوْرَقُ رحْلـتِي عَبْرَ العَـــوَالِمِ.. خـلْفَ سِرِّ المُـبْـدِعِ!
أمِّـي.. رَضَعْتُ أنَايَ.. مِلْءَ حَلِيـبهَـا فالفَـنُّ.. والإيمانُ.. تَـــوْأمُ مُرْضِـعِ!
كانتْ تهَدْهِـدُنِي.. بـــذِكْرِ الله.. فِـــي أذْنٍ.. وفِي الأخْـرَى بشِـعْرٍ.. مُـبْدَعِ!
"قُلَ اعُـوذ".. مَازَالتْ يُرَتِّلُـــهَا دَمِـي ومُعَلقَاتُ الشِّعْر.. تسْـكُنُ مَسْمَعِي!
حَتىَّ الحِكَايَـاتُ.. الأثيـــرَةُ.. لمْ تزَلْ - ليْلا- تؤَثِّثُ.. بالسَّعَادَةِ.. مَخْـدَعِي!

وصَـــدَى وَصَايَاها النَّبِيـلَةِ.. لمْ يَـزلْ هَدْيِي.. وَمُلهمَ مَكْـــرُمَاتِي.. مَصْـنعِي!
كانتْ تُطـــالِعُ ذاتَ صَـدْري.. صَـامِتًا وَتحسُّ.. بي.. مَهْمَا تَنَـاءَى مَوْضِـعِي!
وأنَـا أُطـــالِعُ.. فِي مَلامِـح وَجْـهِـهَا كُتُـبًا.. مَـلاحِمَ.. مِثْـلُها لمْ يُبْـدَعِ!
أمِّي.. أبي قدْ ضاقَ بالجَنَّاتِ.. قـــبْـــ ـلَ وُجُودِهَا.. وبِهَا ازْدَهَى فِي البَلْقعِ!
وأنَا.. بِـلاَ وَطَـنٍ.. سِوَى أحْضَـــانِهَا مَنْ ذا يُحَدّدُ - فِي الخَرَائطِ - مَوْقِعِي؟!
ما يُتْم أُمّي.. غيْر يُتْـــم الأرْضِ.. إنَّـــ ـهُمَا -مَعًا- أُمَّـايَ.. مَرْجعُ مَرْجعِي!
إنِّي اكْتَهَلتُ.. وَمَا يَزالُ بدَاخِـــــلِي طِفْلٌ.. يَرَى أمِّي -الَّتِي مَاتتْ- مَعِي!
تاللهِ.. أفْتأ.. بـاحِثا عَـنْ حِضْنهَا الْـ ـــمَفْـقودِ.. مَا بَيْنَ الحَشَـا.. والأذرُعِ!

ثم كان فقْد أبي عام 2004، محمد لحوار بن سيد أحمد البكاي بن سيدي بن آدب، بعْد تَنَاثُرِ عدّةِ أقْمار منْ أسْرَتِنا، وأنا بعيدٌ في غُرْبَة التعْليم العالي بالمغرب، فصحْتُ من الطويل:

يُغالِبُ صبْري الحُزْنَ.. والحزْن غالِبي وكيْفَ اصْطِباري.. بعْدَ كلِّ مَصائِبي؟!
أنَا الجَبَلُ الـرَّاسِي.. تَمُـورُ.. بأضْـلُعي أعاصـيرُ.. لا يَنْهَـدُّ مـنْهُنَّ جـانِبي
ولكـنَّما قلْبـي قـد أوْهَـتْ شِـغَافَه عَصائِبُ -(حُزْنٍ)- أُعْقِبَتْ بعَصائِبِ"!
فلّـمَّا نَعَـى النـاعِي أبِي الآنَ هَـدَّنِي فصـحْتُ - ولَـيْلِي نَـابِغِيٌّ الـذوَائِبِ:
"كِلِينِي.. لِهَمٍّ.. يـا أُمَيْمَـة.. نَاصِـبِ وليْلٍ.. أقَاسِيهِ.. بَطِـيءِ الكوَاكِـبِ"
"أرَى المَوْتَ يعْتَامُ الكِـرَامَ" تَحَقَّقـتْ لَـدُنْ بَـدَأتْ كَفَّـاهُ جَنْـيَ أقـاربي
فـ"بَدَّايُ"، و"النَّاهِي"، و"شَمَّدُ"، بَعْدَه مـضى "شَمَّدُ"، الثاني؛ سقوط الكواكب
وهـذا أبِي يمْضـي عـلى إثْـرِ قوْمِـهِ فيَا لانْتِثَارِ "العِقْدِ" منْ آلِ "آدِبِ"!
فَمَـنْ آدِبٌ يَقْـرِي الوُفُـودَ، كمِـثْلِهِمْ ومـنْ لِلْمَعَـالِي -يـا لهَـا- والمَواهِـبِ!
أولئـك آبَـائِي، فجِئْنِـي بمِـثْلِهِمْ بُـدُورَ النَّـوَادِي في ظَـلامِ النَّوَائِـبِ
لقـدْ أوْرَثُـوا الـدُّنْيَا فَـرَاغَ مَسَـدِّهِمْ فبـارَكَ رَبُّ العَـرْشِ فِي كُـلِّ عَاقِـبِ
تَعَالَوْا -بَنِيهِمْ- نَجْعَـلِ الكـوْنَ مَأْتَمًـا بترْدِيـدِ بَيْـتٍ رائـعٍ، غـيْرِ كـاذِبِ:

"أَبُونَـا أَبٌ لـوْ كـانَ للنَّـاسِ كُلِّهِـمْ أَبٌ مِثْلُـهُ أَغْنَاهُـمُ بالمَنَاقِـبِ"
فيـا رَحَمَـاتِ اللهِ شُـدِّي قُلوبَنـا وسُحِّي عـلَى أَجْـدَاثِهِمْ كالسَّحَائِبِ

وفي يوم: 3/ 2/ 2013، كانَ فقْدُ شقيقي الأكبر.. أبِي بعْد أبويَّ.. "المُرَابِطُ"، في ثُغُورِ المَعارف والمَكارم، فكتبت نفسَها قصيدةٌ بعنوان: يا قبره.. كن جنة الخلد:

رَأَينا السّما كادتْ على الأرض.. تُطْبِقُ وحَشْرَجَت الأنفـاسُ.. تَخْنِقُ.. تَخْنِـقُ
ودارتْ بنا الأفـلاكُ.. لَحْظـةَ نَعْـيِه فَحِرْنـا.. أَنَنْـفِي مَوْتَه؟ أَمْ نُصَـدِّقُ؟
وعُذْنا بـ "طُور" الصّبْر.. فانْهَدَّ.. لوْعَةً وكلُّ " كَليمٍ ".. يَوْمَ ذا الـرُّزْءِ يُصـعَقُ
وقدْ فَجّرَتْ " طوفانَ نُوحٍ" عُيـونُنا فَنَحْنُ -مَعَ "الجودِيِّ" والفُلْكِ"- نَغرَقُ
وقدْ سَعَّرَتْ " نارُ الخليلِ" قُلـوبَنا إذا دُعِيتْ:" بَرْدًا.. سَلامًا ".. تَحَـرَّقُ
ولَّمـا هَزَزْنـا جِـذْعَ كُـلِّ قصـيدةٍ تَساقَطَ سِحْرُ الشِّعْر.. يُرْتَجُ.. يُطـرِقُ
وُجُومًا.. أمامَ الخَطْبِ.. قدْ غامَت الرُّؤَى وضاقَ مَجالُ القوْل.. فالصمْتُ يَنْطِقُ
لقدْ ماتَ رَبُّ "الضادِ ".. سَيِّدُ حَرْفِها وبَحْرُ العُلـوم.. الأَعْمَـقُ.. المُتَـدَفّقُ
وشَيْخُ الطريـقِ.. المُسْـتَقيم.. تَصَـوُّفًا مُنيرُ عَمَـى الدُّنْـيا.. المُرَبِّي.. المُحَقّـقُ
خديمُ مُريديهِ.. الرفـيعُ.. تَـواضُعًا كَتـومُ الأنَـا.. مَهْما زَهَـا المُتَشَـدّقُ
مُعَـلِّي صُروحِ المَجْـدِ.. قُطْـبُ مَـداره عَميـدُ بني" آدبَّ ".. والبَيْتُ مُعْرِقُ
تأَدَّبَ.. فـي آدابِهـمْ.. ذا مَـآدبٍ بها الروحُ.. مِثل الجسْم.. تحْيَا وتُرْزَقُ
أقامَ عَلى ثغْـر المَعـالي.. "مُـرابطا" فيا حَبَّذا اسْمٌ.. معْ مُسـمَّاهُ.. أَوْفَـقُ
بمَدْرَجَةِ الرُّكْبـانِ.. شـادَ مَثـابَـةً إليها قلوبُ الناس.. تَهْـوي.. وتَعْشقُ
"وليس بحَـلاَّل التِّـلاع مَخَـافَةً" ولكنْ فَتًى.. يَحـمِي.. ويَهْـدي.. ويُنْفـقُ
ويَرْأَبُ ثَأْيَ الناس.. يجْـبُرُ كَـسْرَهمْ يُوَحِّدُ أَشْـتاتَ الرُّؤى.. لا يُفـرِّقُ
تأَبَّطَ مِنْهُ القـبْرُ مَشْـروعَ أُمّـةٍ تَمَـثَّـلَهُ.. فَرْدًا.. وعـاشَ يُحَـقّقُ
وإنّـا.. عَلى آثـاره.. البيضِ.. نَقتفِي وإنْ كـان -في شَأوِ العُلا- ليس يُـلحَقُ

وإنْ يَتَّسِعْ هذا الفَراغُ.. لِفَقْدِه ... فمَنْ أحْدَثَ الفَتْقَ.. الوَسيعَ.. سيَرْتِقُ
لقد زَرَعَ الاخْلاقَ.. مِلْءَ دِمائنا ... عَسَى طبْعُنا.. طبْعَ "المُرابطِ".. يَسْرُقُ
ومهْما يَكنْ فَضْلُ الخلائفِ.. بَعْدَه ... فإنَّ رَجانا - في الإله- المُوَفِّقُ
فيا رَحَماتِ الله.. شُدّي قلوبَنا ... تَعُدْ.. لِمَناطاتٍ.. لَها.. تَتَمَزَّقُ
ويا حُرْقَةَ الفَجْعِ.. انْطفِي.. بِتَجَلدٍ ... فإنّا.. لنا -قِدْمًا -مَعَ الصبْرِ- مَوْثِقُ
ومَرْجِعُنا لله.. مَهْما تَعاظمتْ ... مَصائبُنا الجُلَّى.. بنا اللهُ يَرْفقُ
وما كان بِدْعَ الموتِ.. إنّا سُلالَةٌ ... لِسُبّاق أسْلافٍ.. بهمْ سوف نَلحَقُ
فقبْرُ الفَقيد.. اليوْمَ.. يؤنس روحَه ... ضريح أبينا.. والأقاربُ.. تُحْدِقُ
فإنْ ينقطعْ -فوق التراب- وصالهمْ ... فذرّاتُهمْ -تحت التراب- تُوَثِّقُ
فيا قبْرَه.. كُنْ جَنّةَ الخلْدِ.. واحْتَفِلْ ... بمَنْ كان للأضْيافِ-في الجَدْبِ- يُغْدِقُ
ويا قبْرَه.. أشْرِقْ سنًى.. مُتَهِلِّلا ... لمن كان-للراجي- يَهَشُّ.. ويُشْرِقُ
ويا قبْرَه.. طِبْ مَرْفِقًا.. لمقامه ... فقريته -للمُسْتَجيرين- مَرْفِقُ
عليه سَلامُ الله.. يَسْقي ضَريحه ... ورَوْحٌ.. من الرِّضوان.. بالطيب.. يَعْبَقُ
ولا زال حيا -في القلوب- بحبه ... يُخَلّدُهُ الذِّكْرُ.. الجميلُ.. المُصَدَّقُ

وبعْده تسارَعَ انْتِثارُ عقْد أشِقَّائي، ففِي-11-ابريل-2014 فقدْتُ الدكتور الفيلسوف "حَمَّ، فوَلْوَلَتْ قصيدتي: بعنوان: شهيد غر المعالي:

أخِي.. بِمَوْتكَ.. مَاتَ الصَّبْرُ.. فِي خَلَدِي ... أيَا يَدَ الله..شُدَي -رَحْمَةً- عَضُدِي
أوَّاهُ.. هَا كَبِدِي.. مَنْزُوفَةٌ.. ألَما ... دَمْعًا.. عليْكَ.. أخِي.. يَا "حمَّ".. يَا كَبِدِي
سَرَتْ بِنَعْيِكَ.. مِلْءَ الجِسْمِ.. زَلْزَلَةٌ ... مَهْمَا تَجَلَّدْتُ.. لا يَقْوَى لَها جَلَدِي
بَيْنَ الجَوَانِحِ إعْصَارٌ أكَابِدُهُ ... يَا وَيْلَتِي.. "خُلِقَ الإنْسَانُ فِي كَبَدِ"
للهِ جِسْمٌ.. نَحيلٌ.. منْكَ.. تَعْمُرُهُ ... كُلُّ المَعَالِي التي تَدْعُو إلَى الحَسَدِ

فمَـنْ يَـرَاكَ قَلِـيلاً.. مِـلْءَ مَنْظَـرِهِ ... إنَّـا نَـرَاكَ كثـيرًا.. مُفْـرَدَ العَـدَدِ
الفَلْسَـفاتُ.. فُنُـونُ العِلْـمِ.. مَكْتَبَـةٌ ... تَسْـعَى عَـلَى قَـدَمٍ.. لَمْ تَسْـعَ للْفَنَـدِ
فِي صَمْتِكَ: الخُطَبُ.. الأشْـعَارُ.. مُخْبِتَـةٌ ... إنْ تَرْتَـقِ المِنْـبَرَ المَرْهُـوبَ.. يَرْتَعِـدِ
وخَلْفَ صَمْتِكَ.. أبْحَـاثٌ.. مُعَمَّقَـةٌ ... بِمِثْلِهَـا.. رَائِعَـاتُ الفِكْـرِ.. لمْ تَجُـدِ
قَدْ كُنْتَ –لوْ شِئْتَ– مَشْـهُورًا.. بِعَالِمَنَـا ... لَكِنَّكَ الدُّرُّ.. خَـلَّى السَّـطْحَ.. للزَّبَـدِ
شَـهِيدَ غُـرِّ المَعَـالِي.. مـتَّ.. مُطَّرَحًـا ... ولوْ تَنَازَلْتَ.. عِشْـتَ العُمْـرَ.. فِي صَـعَدِ
قدْ كُنْتَ.. عَفًّا.. سَـلِيمَ القَلْـبِ.. مُرْتَهَنًـا ... لِلْخُلْقِ.. تُعْطِي.. بِصَـمْتٍ.. دُونَـمَا نكَـدِ
رَهَنْـتَ عُمْـرَكَ.. عِرْفانًـا.. لِجَامِعَـةٍ ... رَدَّتْ.. جَـزَاءَ سِـنِّمَّار.. يَـدًا.. بِيَـدِ
لله مِنْـكَ فَتًـى.. قَـدْ كَـانَ نَابِغَـةً ... أضَـاعَهُ بَلَـدٌ.. يَـا ضَـيْعَةَ البَلَـدِ!
رَبَّاهُ.. رُحْمَاكَ.. عَوِّضْـهُ الحَيَـاةَ.. هُنَـا ... بِجَنَّةِ الخُلْـدِ.. والرِّضْـوَانِ.. والرَّغَـدِ
وَهَـبْ لَنَـا شَرَفَ الـدَّارَيْنِ.. مَكْرمَـةً ... فَـلاَ نَـذِلُّ.. لِغَـيْرِ الوَاحِـدِ.. الصَّـمَدِ
وارْزُقْ لَنَا.. بَعْدَهُ.. السّلْوَانَ.. يَـا خَلَفًـا ... قدْ جَلَّ.. عنْ كُلِّ مَفْقُودٍ.. مَدَى الأمَـدِ

ثم فقدت مستهل 2017، توْأم َروحي، شقيقي: سيدي أحمد البكاي؛ فتضرعتْ قصيدتي:

أمْطري.. يا فُـيـوضَ رحْمةِ ربـي ... جدَثا.. حـلَّ فِـيـه فلْـذةُ قلـبْي!
أوْسِـعِيه: أهْلا.. ورحْبا.. فكـمْ ذا ... قـابلَ الناسَ: ألْفَ أهْـلٍ.. ورحْـب!
يا "ابْنَ آدَبَّ".. تَوْأمَ الـرُّوحِ.. آهٍ ... لـوْ يُـدْفَعُ المَـمَـاتُ.. بِطِـب!
إنَّ حُـبّي.. تقـاسَمَـتْهُ.. قُبُـورٌ ... فهُـنا.. هـا هُنا.. هُـنالكَ.. حُبّـي!
رَبّ.. رُحْمَى.. بمَنْ أخذتَ منَ أهْـلي ... وبمَنْ قـدْ أبْقـيْتَ..لُطْفَكَ.. رَبّي!
نَحْنُ لسْـنا.. يـا ربّ.. إلا تُـرابا ... فوْقَ هذي التُّـراب.. أوْ تحْتَ تُـرْبِ!
فـأدِمْ.. مـلْءَ بيْتِنَـا بَرَكـات ... تغمـرُ الأرْضَ بـيْنَ شرْقٍ.. وغـرْبِ

وأخيرا فقدت أخي: سيد محمد ثاني شقيقي الأكبرين 2018، وما زلتُ لمْ أجدْ مَرْثيتَه المُناسبة، لمَعْرِفَتِي بِسُمُوِّ ذوْقِه الأدَبِيِّ، وصَراحَتِه في النقد الشعْري،

لدَرَجَةٍ ربَّما أسْمَعُ صوْتَه يُؤنِّبُني، من تحْت القبْر-برَّدَ اللهُ مثْواه- لوْ كتبْتُ فيه ما ليْسَ على مُسْتَوَاهُ، ولا مُسْتَوَايَ عنْده.. لذلك اسْتَعَرْتُ في تأبِينِه.. بعْد بقية إخْوتي.. قوْلَ الشاعر القديم:

أبَعْـدَ بنِـي أمِّـي الـذينَ تتـابَعُوا أَرَجِّي الحَيَـاةَ أو مـنَ المـوْتِ أجْـزَعُ؟
أولئـك إخْـوان الصـفَاءِ.. رُزِئْـتُهُمْ ومَا الكَـفُّ إلا إصْـبعٌ ... ثـمَّ إصْـبعُ

أجَلْ.. إنَّ إيماني بأنَّ نزيفَ الفقْد.. لنْ يتوقَّفَ دُوني... جَعَلَنِي اسْتَبِقُ مَوْتِي بكِتابَةِ مَرْثِيتِي لنفْسي.. 2012، مُدْرِكا أنَّنَا جَميعا نعيشُ تحْتَ مَشِيئةِ الله.. بيْن الجَبَرُوت.. والرحَمُوت:

لله.. جَـلَّ جَلالُـهُ.. الجَـبَرُوتُ! فِينَا.. يُصَرِّفُ فِعْلَ: مَـاتَ.. يَمُـوتُ!
لَكِنَّـه -أيْضـا- يُصـرِّفُ.. رَحْمَـةً أحْيَـا.. وأنْعَـمَ.. دَامَـتِ الرَّحَمُـوتُ!

أطال الله بقاءكم في عافية.

إن تَخَطُّـفَ المـوْت لإخـوتي -هكـذا- وإنْسَـاءَ الله في عمـري بعـدهم، هـو مـا جلعنـي أسـتنفر بقايـا طـاقتي لتـدارك بعـض الأثـر البـاقي، ولـو كـان مجرد بقية من بقاياه.

وبعْد هذه الحفْريات الخاطفة في عمْق الترابُط بيْن "أهْل آدبَّ" و"الشعر" يبدو موقعهما في العنوان، مسوغا لا إقحام فيه، فحتى اسم هذه الأسرة، مشتق من صميم مادة "الأدب"، بكل ما تعنيه من الأدب النفسي والدرسي، ومن المآدب الروحية، والمادية، حتى لكأنهم المعنيون بقول الشاعر الجاهلي: طرفة بن العبد:

نحْـن في المَشْـتاةِ نَـدْعُوا الجَفَـلَى لا تـرَى الآدِبَ فِينـا ينْتَقِـرْ[1]

[1]- **ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري**، تح: درية الخطيب، المؤسسة العربية للنشر، بيرت، 2000، ص74.

تاسعـــا
الخاتـمـــــة

هنا أضع خلاصات صغيرة، أعتبرها تمثل قطرات عرق من جبين باحث مجهد، اضطرته ظروف عامة وخاصة، لأن يجد نفسه دارسا ومدروسا في الوقت ذاته، نتيجة لقربه من الموضوع المقتحم هنا، إذ كنت أتحرَّكُ في منْطِقة مجْهولة، انْحسرَ دونها مَدُّ الدراساتِ الوطنية، وبقيتْ جزيرةً معرفيةً بِكْرا، بمَنأى عن أقلام الباحثين، ورغم ذلك ربما يكون أهم ثمرات هذه العجالة هي أن:

– هذا المبحث: "أهل آدب: سلالة الشعر وبيت القصيد" ليس إلا محطة أولى من مسار "أدبيات أهل آدب"، التي أريد أن أتدارك منها ما استطعت، قبل أن يدركني الأجل، وستكون المحطة الثانية، هي: "المقاومة الأخلاقية"، ضمن أدبياتهم، على أن أفرد كلا من سيدي ولد آدب، وأخيه: الشيخ أحمد وعمه: محمد ويقي بن سيد الأمين، وابنته خديجة بنت سيدي بن آدب بكتيبات مستقلة، أُجِلِّهُم عن تصغيرها اللائق بي، وبها.

– هذا العنوان: أهل آدب: سلالة الشعر وبيت القصيد"، حقق منطوقه، ومفهومه، عبر هذه العجالة، رغم صعوبات البحث في تراث مجهول آيل للانقراض، إذ برهن على تكثف الجينات الشعرية، عبر جدلية النسب والأدب، في هذه العائلة، فبغض النظر عن الدوائر الشعرية القبلية الكنتية عموما، والبوسيفية خصوصا، تركزت المورثات الشعرية أكثر، في دائرة أهل مْحمد بن الطالب اعمر

ابن خيري، ثم دائرة أهل سيد الأمين بن مْحمد بن الطالب اعمر، ثم انتهت كل الروافد المادَّة في دائرة أهل عبد القادر (آدبَّ) بن سيد الأمين إلى اليوم.

– كتب هذا المبحث في الغربة، وتحت ظل الحصار الصحي، طيلة فترة كورنا، وتعذر التوصل لما ليس تحت يدي من الوثائق والمصادر، فهو لا يدَّعِي الإحاطة بالتراث الشعري لهذه السلالة أبدا، وإنما هو مجرد بقايا من بقاياه، فأكثره سقط من يد الزمن، تحت طائلة الزهد في الشهرة، والتكتم على المنتج، إضافة لتعرضه لِـمَهبِّ الضياع الذي عصف بحواضنه الاجتماعية عبر العقود الماضية، وحتى الباقي المستدرك من هذه المدونة، لم يستحضر منه هنا إلا مجرد نماذج للبرهنة على تجليات المُوَرِّثَاتِ الشعْرية في "السلالة الشعرية البوسيفية" عموما، وأهل آدب: "بيت القصيد" خصوصا، إذ تفاعل فيهم الشعر عموديا وأفقيا، أكثر من بيوتات الشعر العربية الآنفة الموصوفة بالعراقة.

– لم نتعرض لدراسة القيمة الفنية للنماذج الشعرية المؤثثة لفضاء المبحث، لأن صميم الأطروحة هنا متمحور حول تفكيك بنية "الشفرة الوراثية" الناظمة لهذه السلالة الشعرية، وتفاعلاتها، عبر القرون والأجيال، حتى الإرساء بها عند سن قلم الباحث المؤلف نفسه، في هذه اللحظة، مقتصرا على تقديم نتف من هذه المدونة المجهولة المتجاهلة بين يدي القراء.

– وهكذا يكونُ مُجَرَّدُ اقْتراحي لعنوان عن "شِعْر أهْل آدبَّ" أطروحةً في حَدِّ ذاتِه، فهذا الاسْم العائليُّ معْروفٌ لدَى الكثيرين، وعلاقتُه بالشِّعْر حميمةٌ في الذهْنية الجَماعية لدى "البيضان"، لكنْ مَنْ ذا يعرفُ شيْئا ذا بالٍ عن "الشعر والشعراء"، في هذه الأسْرةِ، باستثناء المُبْدِع/ الظاهرةِ: محمد بن آدبَّ، الذي ليس –حَقيقة– إلا "الشجَرَة التي حجبت الغابَة؟

– حسْبي أنِّي برهنْتُ على أطْرُوحَتِي بتقدْيم أسْماء ونُصوصٍ مَجْهولةٍ لجميع من هم خارجَ دائرتنا الضيقة.. في انتظار المزيد.

المؤلف في سطور

أدي ولد آدب –شاعر– وباحث موريتاني (دكتوراه في اللغة العربية والأدب).
له حوالي عشر مجموعات شعرية، نشرت منها وزارة الثقافة الجزائرية 2009م، ديواني:

1– **رحلة بين الحاء والباء.**

2– **تأبط أوراقا..**

3– **بصمة روحي**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط 1، 2018.

ونشرت له بحوث ومقالات، كما نشرت له كتب:

1–**"الإيقاع في المقامات اللزومية للسرقسطي"**، نشرته دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة 2006م.

2–**"المفاضلات في الأدب الأندلسي/ الذهنية والأنساق"**، نشر 2015 من قبل المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بالدوحة.

3– **تأويل رؤياي: أطروحات صغيرة في الأدب والثقافة**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط 1، 2019م، (يضم حوالي 150 مقالا).

وأخيرا سلسلة: **"أدبيات أهل آدب"**:

1– **أهل آدب: سلالة الشعر وبيت القصيد**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020

2– **المقاومة الأخلاقية في أدبيات أهل آدب**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

3– **سيدي ولد آدب: رمز الفتى الكنتي، فارس المدفع والقلم**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط1، 2020.

4– **الشيخ أحمد بن آدب: شيخ المشايخ وقطب الشعراء**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط 1، 2020.

5- **خديجة "دَيَّه" بنت سيدي بن آدب: خنساء شنقيط**، مؤسسة آفاق، مراكش، ط 1، 2020.

وفي الأفق سلاسل أخرى، إن شاء الله.